اقرأ

على الجارم بك

شاعر ملك

قصة المعتمد بن عباد الأندلسى

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

شاعر ملك

علي الجارم بك

شاعر ملك

قصة المعتمد بن عباد الأندلسي

اقرأ ٦

تصدرها مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر
بمعاونة الدكتور طه حسين بك وأنطون الجميل بك
وعباس محمود العقاد وفؤاد صروف



ليـــــلة

فى ليلة من ليالى ربيع الأول سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة للهجرة ، كانت مدينة باجة بالأندلس يلفها ظلام دامس ؛ بعد أن ظهر القمر فى طليعة الليـل قليلاً ، يرسل شعاعه فى رعدة وضعف ، حتى إذا دنا من الغرب ، التقمته لجة الليـل ، فغاص فيها وترك وراءه المدينة فى تجهم وسكون وحداد . وكانت الرياح تعصف من الجنوب والشرق شديدة عاتية ، فتسوق السحائب أمامها بسياط من البروق ، وتزجرهـا بهزيم من الرعد غاضب عنيف . وكانت النجوم لا تكاد تطلّ من بين ثنايا هذه السحائب الراجفة المسرعة حتى تختفى ، كأنها لمحات الأمل الكاذب يلتمع فى سواد الخطوب ، أو تلويح الغريق جاءه الموج من كل مكان ، فهو يرسب ويطفو ، حتى يحول الموج بينه و بين الحياة .

فزع الناس إلى بيوتهم فى هذه الليلة الليلاء ، والتجأ المسافرون إلى فنادقهم ، وخلت الدروب من السابلة ، فلا يجد المطلّ من

خلال نافذته، إلاّ العسس والحرّاس يذهبون ويجيئون ، وبأيديهم العصىّ الغليظة يضربون بها الأرض فى عنف وقوّة ، حتى يعلم من لم يكن يعلم من اللّصوص وقطّاع الطرق ، مقدار صولتهم ومدى فتكهم .

وكان يسمع بين الحين والحين عواء كلب أضرّ به البرد ، وآذاه المطر ، فالتجأ إلى حائط يعصمه من الماء ، وأخذ يرتعد ارتعاد المقرور ، ويرسل صوتاً مستطيلاً حزيناً ، زاده سواد الليل وهدوؤه همّا وحزنا .

وسكتت الطيور فى عشاشها فوق أشجار الزّيتون والتّين ، إلا بومة سكنت فى جحر من بيت خرب ، راحت ترسل نعيباً مؤلماً ، تنقبض له النفس وتضطرب الأعصاب ، ويوحى بالموت والفجيعة والدّمار .

فى تلك اللحظة — وكان الليل فى منتصفه — التقى أحد العسس بزميل له فى أثناء دورته ، فما كاد يراه حتى سُرّى عنه ، وتولّى من نفسه عارض الهمّ والخوف ، لأنه فى الحق كان خائفاً ، على أنه يرضى أن يموت بين براثن الأخطار المحدقة ، ولا يرضى أن يقول قائل : إن أبا عوف الخزامىّ خاف مرة فى حياته !

إنه جندىّ قديم خاض غمار الحروب الطاحنة المستمرة بين المسـلمين ومغيرة الأسبان ، وطالما قذف بنفسه بين الصفوف ، والموتُ جذلان ينظر ، فلم يبال بالموت ، ولم يأبه للحياة .

كان أبو عوف قوىّ العضل ، ضخم الجسم شَعشاعاً ، دبّ الشيب قليلاً فى عوارض لحيته ، ولكنه كان على قوته الجسمية التى كانت فى مقتبل شبابه مضرب الأمثال ، ساذجًا بطىء الفهم قليل التفكير ، كثير الغفلة ، يؤمن بالخرافات إيمـان الواثق ، و يصدّق أقاصيص الجنّ والشياطين تصديق العجائز .

وقد عرف مخالطوه فيــه هذا الضعف ، فأ كثروا من تنميته واستغلاله .

أحسّ أبو عوف فى هذه الليلة خوفاً ورهبة ، زاد فيهما نعيب البومة ، وهدوء الليــل ، وانقطاع الطريق من السابلة ، فبدت أمام عينيه أشباح مخيفة غريبة الخلق ، مرة تبتسم له ، وأخرى تعبس مهدّدة متوعدة ، وهو بين ذلك يحاول أن يغمض عينيــه ليفرّ من هذه المخلوقات المنكرة ، فلا يزيده الإغماض إلا نكالا ، لأنه إذا أغمض رأى أصنافاً أشدّ بشاعة ، وأعظم نكراً . أخـذ يهزّ رأسه هزًّا شديداً ، وحاول أن يرفع صوته بأنشودة فلم

يستطع ، ثم شرع يضحك ضحك الهاذى المحموم ، ليقوّى من نفسه ، وليدعو إليه شجاعته ، وليظهر عدم مبالاته ، فكانت الضحكات خافتة خاوية جافّة ، أشبه بفحيح الأفاعى أو نقيق الضفادع ، منها بضحك المرح والسرور .

كان فى تلك الحال حينما التقى بزميله أبى عبد الله الشنتمرىّ ؛ فما كاد يراه حتى أخذ يبلّ شفتيه بلسانه ، ويمسح بيديه على وجهه مسحاً عنيفاً ، كأنه كان يريد أن يمحو منه كل أثر للخوف ثم تنحنح قليلاً باحثاً عن صوته الذى كاد يذهب به الفزع ، و بعد أن حيّا صاحبه قال :

— يا لهذه الليلة ! ! كأن أرواح الجن جميعاً انطلقت فيها من قماقم سليمان بعد طول احتباسها .

— أتصدّق أبا عوف ، أن سليمان بن داود كان يحبس الجن فى قماقم ؟ ؟

— أأصدّق ؟ ! إن هذا السؤال منك لعجيب . إن سليمان مُنح من الملك والقوة ، ما لم يمنحه أحد فيما كان ، أو فيما يكون .

— هل كان الجن صغاراً أقزاماً ، لا يزيد الواحد منهم على قبضة اليد ؟

— لا . إن الجن خلق ضخام الأجسام جدًّا ، حتى إنهم ليستطيعون أن يصلوا بأيديهم إلى الشمس ، ليقتبسوا منها جذوة إذا أرادوا .

— وهل تظن أن هؤلاء — مع ما ذكرت من ضخامتهم — يستطاع حبسهم فى قماقم لا تكاد تتسع لهريرة ؟

— إن القماقم تتسع ، أو هم يصغرون .

— إذا اتسعت القماقم لم تكن قماقم ، وإذا صغرت الجنّ لم تكن جنًّا .

— إن لعقلك أبا عبد الله لفتات ودورات ، وفروضاً تدعو إلى الحيرة والارتباك ، وإنى لا أحب أن يتخذ الحوار هذه الطرق الملتوية ، لأننى أفكر فى طريق مستقيم ، ولا أريد أن أجهد عقلى بهذا التشعب الذى لا يؤدى إلى شىء . الجنّ جنّ ، والقماقم قماقم ، وقد سمعنا من أمهاتنا ، ومن الشيوخ القصاصين : أن سليمان كان يحبس الجن فى قماقم ، وهذا كاف ، فدعنا من هذا بحقك . . . أرأيت فى حياتك مثل هذه الليلة ؟ ؟

— إنها — بلا شك — ليلة شديدة الأنواء ، عاصفة الرياح منهمرة المطر . وقليلاً ما نجد لها مثيلاً فى هذه الولاية من

الجزيرة . . . غير أنى علمت من أبى : أنه فى شتاء السنة التى حدثت فيها الفتنة بقرطبة ، اشتدت الأنواء ، وأنذرت السماء بالصواعق ، وكاد المطر يهدم الدور ، حتى ظنّ بعض الناس أن ذلك كان غضباً من السماء ، وإنذاراً بالويل والعذاب ، لما شاع بين المسلمين – وبخاصـة الأمراء والوزراء وجماعة المثرين المستهتَرين – من الانغماس فى الشهوات ، والاستسلام للنعيم ، وإهمال شئون الدولة إهمالاً كاد يذهب بريحها ، ويلقى بهـا فى أيدى أعدائنا الأسبان الذين يتربصون بنا الدوائر ، والذين لا ينسون أن لهم عندنا ثأرا . بعد هذه الحادثة السماوية ، وقعت الفتنة بقرطبة ، بين محمد بن هشام المهدى وسليمان الملقب بالمستعين ، وقد كانت فتنة شعواء ضلّت فيهـا العقول وانحطت الدولة ، واستعان كلا الأميرين بالأذفونش (الفونسو) على صاحبه ، واشتد الحصار على قرطبة ونهبها البربر وعرب زِناته والرعاع .

— حقاً إنها لحادثة مفجعة . . . . لقد كنت فى الخامسة عشرة فى ذلك العهد ، وأذكر أن أبى كان كثير الاهتمام بالأمر ، يستطلع الأخبار من البريد القادم من قرطبة فى كل يوم . وكان أبى جندياً شجاعاً ، ولكنه كان مولعاً بقراءة التاريخ ، وقد أنفق

نصف ماله على الورّاقين الذين كانت لهم أساليب الأبالسة فى اجتذابه إليهم ، لشراء كتب عتيقة بالية ، يزعمون أنها جاءت من المشرق ، حتى لقد ضاقت نفسى بذلك الإسراف يوما فلم أستطع عليه صبراً ، فقلت : يا أبى لقد أضعفت بصرك بقراءة هذه الكتب ، وهؤلاء الورّاقون لصوص أدنياء ، وقد استلانوا منك مغمزاً فأخذوك بحيلهم الخدّاعة ، وكتبهم الكاذبة الزائفة .

فاتجه إلىّ ولمحات الغضب فى عينيه ، وقال : اعلم يابنى أن العقل عقلان : مولود ، ومكتسب . فأخذتنى الدهشة وقلت : إذا كانت عقبى قراءة الكتب ياأبى ، أن تزعم أن العقل عقلان ، فهذا فى الحق ما كنت أخشى عليك منه ! فضحك أبى ، وهزّنى من كتفى ، وقال: هوّن عليك أبا عوف ، أنت ثور وحشى صغير!

— وقد أصبحت الآن ثوراً كبيراً .

— ذاك مزاح مضى وقته . . . . أليس من العجيب ألا يفهمنى الناس ؟ ! وأننى كلما صدعت برأى ، تهامسوا أو ابتسموا كأن الله أنزل عليهم حكمة داود دونى ! ! . منذ شهرين ، عزم ابنى محمد على التزوج بفتاة نصرانية شغفته حباً ، فذهبنا إلى قاضى العقود ، فلما همّ بعقد الزواج طلب شاهدين ،

فبصّرته بأنه يجب أن يكون أحدهما نصرانياً ، ليكون المسلم شاهداً على الزوج ، والنصرانى شاهداً على الزوجة . فابتسم وصرف وجهه عنى فى صلف وغرور يعرف هؤلاء الفقهاء كيف يتقنونه ، فلما ألححت ، مد عينيه فىّ من قمة رأسى إلى جوف أخمصى ، وقال : ما لك ولهذا أبا عوف ؟ ! إنما أنت رجل حرب وجلاد ، فدع ما لغيرك لغيرك . فغضبت وقلت : لو لم أكن رجل حرب ، ولو لم أدفع عنك وعن أمثالك صولة الأسبان بسيفى و بساعدى ، لكنت اليوم من سكان القبور ، وما استطعت أن تنظر إلى — كما تفعل الآن — نظرتك إلى حيوان عجيب الخلق، ولذهب علمك وفقهك اللذين تتبجح بهما طُعمة للسيف والنار . فسكت الرجل على دَخَل ، ومن العجب أنه تمسك برأيه . وعقد الزواج بشاهدين مسلمين .

— دعنا من هؤلاء الفقهاء أبا عوف ، فإن بينك و بينهم بعد ما بين باجة وأربونة . . . . أسمعت تلك البومة التى أخذت تولول بصوت مفزع ملىء بالأحزان ؟!

— سمعتها وتشاءمت منها أشد التشاؤم ، وأعتقد أنها نذير سوء .

— تلك أوهام أبا عوف ، فإن ما كان يكون
وما غراب البين إلاّ (م) ناقة أو جمـــــل

و بينما هما فى حديثهما ، إذ سمعا خطوات أشباح فى الظلام ، يدنو صوتها إلى حيث وقفا ، فقال أبو عبد الله : لا بد أن أمراً ذا بال دفع هؤلاء الناس إلى النزول فى هذه الليلة القاسية .

وما كاد يأخذ فى الحديث ، حتى مرّت بهما طائفة من حرس الوالى عباد بن أبى القاسم و بينهم امرأة متلففة بالصوف ، مجللة بالسواد ، وقد حملها الخدم فى محفّة غطيت بنسيج من الكتان الغليظ لا يكاد ينفذ منه المطر . فوقفت المحفّة قليلا ، وسأل أبو عبد الله عن الخبر ، فأجابه جوهر السودانى : بأن امرأة الأمير جاءها المخاض فى منتصف الليل وأنهم أحضروا لها نزهة الغرناطية القابلة (وأشار إلى المرأة التى بالمحفّة) . حينئذ ساروا جميعاً إلى قصر الأمير ، وكان قصراً فخما بنى على الطراز العربى ، وزخرف بعجائب الصنعة و بدائع الفنون ، وقد أطلّ النور من جميع نوافذه ومشارفه ، وكان الخدم والجوارى فى شغل شاغل يجيئون و يذهبون .

فدخلت القابلة القصر ، وجلس أبو عوف مع الحرّاس فى

بناء أعدّ لهم ، حتى إذا مضت ساعة أو ساعتان ، علت الأصوات في القصر ، وانبسطت الوجوه ، ونزلت جارية تثب فوق درجات السلم وثباً ، وهي تصيح في لغة عربية متكسرة تمتزج بالرطانة الاسبانية : البشرى .... البشرى .... ولدت الأميرة .... ولدت بنت مجاهد .... إنه غلام .... إنه غلام .... إنه جميل جداً . حينئذ سحب أبوعوف عصاه ، وهو يردد : إنه غلام .... إنه غلام .

فنـــدق

بزغت شمس اليوم الثاني مشرقة وضّاءة ، وانحسرت الغيوم عن السماء وصحا الجو ، كأن لم يكن نوء ، وكأن لم يكن أمطار ، وكأن لم يكن رياح هُوج . ومضى الناس في شوارع باجة مستبشرين بعد ما دهمهم من الغم والرعب في الليلة الفائتة .

ولم يكن لهم من حديث إلا ما كان جول السقوف وكيف نفذ منها المطر ، والشرفات وكيف أطاحت بها العواصف ، والبرق وما كان من خوف أولادهم ونسائهم من توهجّه ، والرعد وما ترك في النفوس من رعب وفزع .... وجلست طائفة من الشبان

المثقفين بفندق يتناشدون الشعر ويتطارحون النوادر وطرائف الأحاديث ، وكان يقيم بالفندق شيخ جاوز الأربعين ، هو العالم الزاهد أبو حفص عمر الهَوْزَنِىّ ، قدم من إشبيلية لينسخ بعض كتب الحديث التى بخزائن باجة .

جلس الشيخ فى صمت وإطراق ، تتحرك شفتاه بما لا يكاد يسمع من أدعية أو تسبيح ، وقد كان عرفه أحد الفتيان حينما كان يدرس العلم بإشبيلية ، فاتجه إليه سائلا : كيف كانت ليلة الشيخ أمس ؟ فأجاب الشيخ : الحمد لله على كل حال . . . . صدق الله العظيم : « حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازّينت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس » .

هذا يا بنى إنذار من الله لهذه الأمة التى نسيت الله فأنساها أنفسها ، وانغمست فى النعيم فغطى على أعينها فهى لاتبصر ، وعلى آذانها فهى لا تسمع . . . . لا تجد أينما سرت إلا مجالس لهو ومحاضر أنس . . . . خمر ونساء . . . . ونساء وخمر . . . هذا شعار هذه الأمة المنكودة ، كأنما هى فى حلم لذيذ لا تريد أن تستيقظ منه ، وقد جاءتها المَثلات وصاحت فى آذانها العبر . . .

ولكنها سادرة عابثة تسير إلى الهوّة التى لا قرار لها وهى لا تشعر .

إن هذه الأمة المسكينة كقطيع من الشاء ، لا راعى له ولا حافظ ، وقد أحاطت بها الأسود من كل جانب . والأمراء الأمراء ؟ ؟ . . . أين هم ؟ ! . . . . إنهم فى تصارع وتطاحن . . . بعضهم أعداء بعض ، لا تنطفئ نيران الحروب بينهم ، يريد كل واحد منهم أن ينفرد بالقوة والسلطان ، ويريد أن يمحو ملك أخيه ويستأصل شأفته ولو أدى ذلك إلى الاستعانة بملوك الأسبان ، وهؤلاء يغرون بعضهم ببعض ، ويزينون لهم ما هم فيه من حقد وخلاف وحرب ، ليضربوا هذا بذاك ، حتى يضعفوا جميعاً .

كان على هؤلاء الأمراء أن يلتفّ بعضهم حول بعض ، وأن يكوّنوا حِلفاً عربياً قوياً أساسه المحبة والتعاضد ، وأن يكونوا كالبنيان المرصوص ، إذا فجأتهم صيحة ، أو حلّت بهم نازلة .

إن الله سبحانه وهب لأحطّ أنواع الحيوان غريزة تدفعه إلى التجمع والتعاون للدفاع عن النفس والحوزة : فالنمل تعيش أسراباً . . . . والنحل تعيش أسراباً . . . والطير تَصُفّ فى جوّ السماء أسراباً . . . . والظباء تسير أسراباً . . . . فما للإنسان المسكين يميت غريزته ، وتتغلب عليه شهوة التملك والقهر ،

فيحارب من يجب أن يستعين بهم . ويبدّد قوته فى سبيل أن يعيش منفرداً بعظمة موهومة وسلطان كاذب .

انظروا كيف أضعف هذه الأمة صبية بنى أمية الذين دعوا أنفسهم ملوكا ، ثم خلعوا على أنفسهم ألقاب الخلافة أسوة ببنى العباس ! ! فقد استعان بعضهم على بعض بالبربر والصقالبة وملوك الأسبان ، فهلك أربعة منهم فى نحو سبع سنين وأضاعوا ملكا عظيما ، بناه آباؤهم الأولون بآرائهم وسيوفهم .

ثم ماذا حصل لما تفرقت الكلمة وكثر الأمراء ، وانفرد كل أمير بولاية ؟ ؟ المصيبة نفسها . . . لهو وسرف ، وإغراق فى الشهوات ، ثم تفرق وتخاذل وغدر .

ارجعوا إلى ما حصل فى هذه المدينة منذ عهد قريب . . ثار فيها البربر واشتد فيها الخلاف ، وتأججت نار العصبية بين البربر والعرب ، فتنازع للتغلب عليها أبو القاسم بن عبّاد و بنو الأفطس ، وأرسل ابو القاسم ابنه عبّاداً لإخضاعها ، فحاصر ابن الأفطس بها وأفنى رجاله ، ثم أسره وتملك المدينة .

وكانت هذه الحادثة صائحة الشر بينهم ، ولا يزالون إلى اليوم فى حروب لا تنطفىء نارها ، ولا يخمد أوارها . ومثل هذا من

الشر والتنازع ، ترونه فى بقيـــــة الأمراء .

نحن يا أبنائى غرباء فى هذه الأرض . . . غرباء فى مملكة قوية ملكناها من أهلها بقوة السلاح ، ولا نستطيع أن نبقى فيها إلا بقوة السلاح . نحن غرباء فاتحون بين قوم أولى قوة وأولى بأس شديد ، لا ينامون على الضيم طويلا ، ولا يصبرون على ضياع ملكهم . . غرباء فاتحون نزلنا أرض الأندلس ، وهى جنة وارفة الظلال ، متدفقة الأنهار ، كثيرة النعم ، وافرة الخير ، فكان علينا أن نشكر الله عزّ شأنه بالحرص على هذا الفردوس الأرضىّ ، وأن نجاهد متواثقين لتنمية خيراته وإعداد العدة للذود عنه ، وأن نستعيذ دائماً من نزغات إبليس الذى أخرج آدم من الجنة وما كان فيها من نعيم مقيم . كان علينا أن نعلم — وقد نزلنا أرض الأسبان ، وأخضعنا أهلها ووضعنا الجزية على سادتها وكبرائها — أننا قد انعزلنا بديننا وقومنا — وهم فئة قليلة — فى بلاد نائية ، وفى جزيرة منقطعة عن المشرق . وكان علينا أن ندرك المرمى البعيد الذى ألمع إليه طارق حين أحرق سفنه وقواربه ، وصاح فى قومه : البحر وراءكم والعدوّ أمامكم ، وليس لكم إلا الجلد والصبر » .

كان الشيخ يتحدث فى تأنٍّ وصوت مرتعد ، وكانت آثار الغضب والحزن بادية على وجهه ، وكان الفتيان ينصتون إليه واجمين ، كأنّ شيئاً مما ذكره وأفاض فيه لم يخطر لهم ببال ، ثم ابتدره أحدهم قائلا :

« صدقت يا شيخ . إن أخلاقنا العربية ذهبت عنا منذ حين ، و إنى أعتقد أن العرب لا تسود إلا إذا تمسكت بعاداتها ، عادات البداوة والخشونة ؛ فإذا انصرفت إلى الحضارة أذهلها بريقها فتفككت فى النعيم ، واستنامت إلى الدعة وتجردت من الشجاعة والحمّية ، وضعفت فيها تلك العقيدة الإسلامية القوية التى هزمت بها الممالك وثلّت العروش ، أمام عدد أكبر من عددها ، وقوة أضخم من قوتها ، وأظن هذا معنى قول الله — وهو الصادق العليم — : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين » .

وقال ثان من الفتيان : أظنّ أن الشيخ صوّر داء الأندلس فى كلمتين : التنازع على الملك والشهوات !

إن هؤلاء الأسبانيات وبال على الملك والملّة معاً . . . . إن فيهنّ لفتنة وسحراً يستلاّن من النفوس كل أخلاق الرجولة

ويستعبدان القلوب . . . وفى بيت كل أمير من هؤلاء مئات يتمتع بهن ويلهو بين الكاس والطّاس ، وأعتقد أن كثيراً من هؤلاء الجوارى جاسوسات لملوك قشتالة وغيرها ، ينقلن إليهم أخبار كل أمير ، وينفّذن ما يأمرونهن به من كل ما يضعف الدولة ويذهب بصولتها .

إن جمال هؤلاء الأسبانيات ورقة حديثهن ولطف دلالهن ، مما يعجز عنه الوصف ويكبو دونه التعبير ، حتى كثرت الأسواق التى يبعن فيها فى كل بلد من الأندلس ، وأقبل الشبان على التّسرّى بهنّ ، وامتنعوا عن التزوّج بالحرائر . فكسدت سوق بناتنا وأصبحن يحتلن على الزواج بالتبرج وإظهار الزينة ، واتخاذ وسائل الإغراء ، واجتذاب الرجال ، ففسدن وسقطن فى حمأة من الرذيلة ذادت عنهن الرجال .

وهكذا عدن بالخيبة بعد أن حاولن الاستشفاء من داء بداء .

فقال الشيخ : « إننا أتينا من ذلك الجنون الذى أصاب أمراءنا . وهو غرامهم بالتشبه بملوك بنى العباس .

سمعوا كثيراً عن إغراق هؤلاء فى اللهو والمجون ، واقتناء القيان والغلمان ، وتبديد الأموال فى العظمة الكاذبة ، فأبوا أن

يكونوا دونهم فى شىء من هذا : خمر وقيان وغلمان ، ولهو وعَبث ومجون ، ثم قصور شامخات ، وحدائق باسمات . . . . أما الدّولة والأمة . . . . فلهما ربّ يحميهما .

فانبرى ثالث وقال : إن روح اللهو والمجون هذه سرت إلى كثير من الناس ، حتى جازت الحدّ

دعانى مرّة أبو منصور السلامىّ للتنزه بمُنية الفرج ، وهى على بعد فرسخين من المدينة ، وكان قد صنع صنيعاً دعا له طائفة من الأدباء والشعراء والتجار و بعض الفقهاء ، فلما استقررنا بالمنية — وكان قد سبقنا غلمانه وعبيده إليها — مدّت الموائد ، فنلنا منها طعاماً شهيّا ، ثم رفع الطعام ، وصفّت أوانى الشراب ، وأخذت القيان فى الغناء والرقص ، ولعبت الخمر برءوس أصحابى ، وعلا ضجيجهم ، فكانت قهقهة الأباريق تمتزج بقهقهة المرح ، ورنات العيدان والطنابير تختلط بأغاريد طيور الربيع ، وخطوات الرقص تساير الألحان فتثير الأعصاب وتهيج الأشجان .... بين نكات وطرف ، وفرائد من الشعر تتناثر هنا وهناك « كما نثرت فوق العروس الدراهم » .

أما القوم : فقد خلعوا عذراهم ، وأرسلوا للهو عنانهم ، فطاروا

إلى اللّذات ، وأغرقوا عقولهم فى الكاسات ، والقيان تمشى بينهم وكلهن فتنة و إغراء ، يرسلن الشباك لاصطياد العقول ، بين غمزة بالعين ، ومدة للشفتين فى دلال يشبه الغضب ، وكلام هو السحر أو دونه السحر .

و إذا بماجن يستخفه الطرب فيصيح منشداً :

لا تنم واغتنم ملذة يوم إن تحت التراب نوماً طويلا !

وثان ينشد :

يقولون : تب ، والكأس فى يد أغيد
وصوت المثانى والمثالث عالى !

وثالث ذهبت الخمر بصوابه ، فأخذ يغنى فى تلعثم :

أفنيت عمرىَ شرباً على وجوه الملاح
أحيي الليالى طروباً فى نشوة ومزاح
ولست أسمع ماذا يقول داعى الفلاح

ورابع يغنّى ويقول :

سقوْنى وقالوا لا تغنى ولو سقوا جبال حنين ما سقونى لغنّتِ

ثم قام شيخ جاوز الستين ، وأخذ يرقص وهو متوكّىء على عصاه ، وقد غلبه السكر ، ثم شرع يترنّم بأبيات ابن شُهيد ،

التى أنشدها حينما رقص فى مجلس المنصور بن أبى عامر :

هاك شيخا قاده عذر لكا قام فى رقصته مستهلكا
عاقه عن هزها منفردا نِقرس أخنى عليه فاتكا
مَنْ وزيرٌ فيهم رقاصةٌ قام للسكر يناغى ملكا ؟
أنا لو كنتُ كما تعرفنى قمت إجلالا على رأسى لكا
قهقه الإبريق منى ضاحكا ورأى رعشة رجلى فبكى

و بينما نحن على تلك الحال ، إذا غلام قروىّ خبيث يصيح : الأسبان . . . . الأسبان . . . . إنهم قادمون مع جيش من البربر للوثوب على باجة .

فأطار الخوف الخمر من رءوس القوم ، وأخذ منهم الذعر والهلع كل مأخذ ، واصطدم بعضهم ببعض ، وداسوا فوق العيدان والكئوس ، واجتذبوا ذيولهم من القيان اللآتى حاولن الاحتماء بهم . . . . ثم تبين بعد قليل أنها فرية دنيئة ، وأن الغلام اللئيم أراد أن يكدر صفوهم ، ويفرق جمعهم .

فأسرع الشيخ قائلا : إن إنذار الغلام لم يكن كاذبا ، وستأتى إليهم الأسبان حتما ، إن لم يكن اليوم فغدا .

ويحى على الأندلس ويحى ! ! أين أيام عبد الرحمن الناصر ؟ !

حينما كانت راية الإســلام تخفق على أرجاء الجزيرة فى عزة وشموخ ، وحينما كانت الوفود من ملوك الأسبان تأتى إلى الزهراء فتحسر عن رءوسها إجلالا وهيبة ؟ !

فهزّ أحد الفتيان رأسه فى تحسّر وقال : هذا كلام صحيح . ولـكنى أنصح للشيخ أن يكتم السخط على أمراء هذا الزمان فى نفسه ، فإن أميرنا عبّاداً رجل بطّاش ظالم ، يسبق السيف كلمته ، ويصطاد العصفور من بين براثن النسور . وهو كثير الجواسيس ، ينقلون إليه أخبار الناس وأحاديثهم حتى ليقال : إنه يعرف ما يحصل فى كل دار ، ويكاد يعرف ما يجول فى كل نفس .

فأجاب الشيخ : هوّن عليك يا فتى . . . . إن الله كتب لكل نفس أجلها ، وإنما ضيّع الناس الرياء ، والنفاق ، والسكوت على الداء وهو يدب ويستشرى

وبينما هم فى الحديث ، إذ دخل شاب من طلاب العلم بالمدينة وهو يقول : إن عظماء المدينة وعلماءها وشعراءها يذهبون إلى القصر لتهنئة الأمير بمولود جديد .

فنظر الشيخ فى السماء . . . . وأخذ يردد :

بشّر الدّهر بمولود جديدْ ليت شعرى أشقى أم سعيد ؟

تهنئــــة

أعدّ العبيد كرسيًّا للأمير عباد إلى جانب سرير زوجه طاهرة بنت مجاهد العامرىّ أمير دانية ، وكانت أحظى زوجاته عنده وأقربهنّ إلى قلبه .

فدخل الأمير باشًّا يتلألأ وجهه بشراً على غير عادته التى اعتادها من مظاهر الجد والعبوس ، وما نظر إلى طاهرة وهى فى سريرها تهش لمقدمه ، وتصوّب إليه عينيها الناعستين فى حب وجذل — حتى عاجلها بقوله : أتذكرين يا طاهرة يوم قلت فيك :

رعى الله من يُصلى فؤادى بحبّه
سعيراً ، وعينى منه فى جنّة الخلد
غزاليّةُ العينين شمسيّة السّنا
كثيبيّة الرّدفين غُصنيّة القدّ
شكوت إليها حبها بمدامعى
وعلّمتها ما قد لقيت من الوجد
فصادف قلبى قلبها وهو عالم
فأعداه ، والشوق المبرّح قد يُعدى

فقاطعته : نعم أعداه يا مولاى ... والشوق المبرّح قد يعدى !
ولكن عبادا استمر ينشد :

فقلت لها هاتى ثناياك إننى أفضل نوّار الأقاح على الورد

فجلست طاهرة وقالت : والله يا مولاى ما عذبتك بصدّ ، ولا روّعتك بهجر . . . ولكنها عادة الشعراء كأنهم لرغبة التمتع بلذة الوصل يقرنون إليها ألم الهجر وذلّ القطيعة ، ليشعروا بكل ما فى الوصل من سعادة ونعيم ! ! أترانى صدّقتك يا مولاى — وأنت الصادق دائماً — حين قلت :

تنام ومدنفها يسهرُ وتصبر عنه ولا يصبرُ
لئن دام هذا وهذا به سيهلك وجداً ولا يشعر

فعبث الأمير بخدها ، وقال : أين الغلام ؟ ؟ وكيف الطّلى وأمه ؟ ؟

فحملته بين ذراعيها فى رفق وحنان ، وكشفت عن وجهه غطاء من الحرير الرقيق ، وقالت : إنه جميل وسيم يا مولاى . . إن فيه كثيراً منك ، وكثيراً منى .

فنظر الأمير إلى وجهه وقال : نعم يا جارية . هذا أنفك بعينه لايكاد يخطىء الشبه من ينظر إليهما.. أنف أسبانىّ ورب الكعبة.

فتكلفت طاهرة الغضب في دلال وفتنة ، وقالت : ألا يزال الأمير يعيّرني بأبي ؟ ! والله إن إصهارك منه لأكبر دليل على شرف محتده ونبل منزله .

نعم إن أبي كان مولى أسبانياً من موالي المنصور بن أبي عامر ، ولكن نسبه يرجع إلى أسرة عريقة من ملوك الشمال ، ثم زاده الإسلام شرفاً على شرف ، وأضاف إلى مجده التليد مجداً طريفاً

— أنا أعرف ذلك يا طاهرة ، وإنما هي مزحة أردت أن أثير بها غضبك . أرجو أن يكون هذا الغلام سعيداً ، كما أرجو السعادة لأخويه : إسماعيل ، وجابر ، فإنني يا طاهرة دائم القلق على ذريتي ، وعلى ذلك الملك الذي أثّلناه بعزم يدك الجبال ، ولاقينا في توطيده وتوسيع رقعته ما يشيب نواصي الأطفال .

— إنك قويّ الخيال يا مولاي ، تجري وراءه فيصوّر لك التصاوير المزعجة ، ويقضّ مضجعك كأنه حلم مزعج ، حتى إذا صحوت منه لم تجده شيئاً .

— لا يا ابنة مجاهد . إن المنجّمين يكادون يجمعون على أن زوال ملكنا يكون على أيدي قوم يطرءون على الجزيرة من غير سكانها ، وأغلب الظنّ أن يكون هؤلاء هم البرازلة ، الذين طرأوا

على الأندلس فى عهد المنصور بن أبى عامر . لذلك صمّمت — إن تنفّس لى العمر ، وامتدّ الأجل — أن أكتسح غرب الجزيرة وألا أبقى من ملوكه ملكا على عرش .

— زادك الله يا مولاى قوة وتمكيناً ، وأمتع بحياتك .

عند ذلك تهيّأ الأمير للقيام ، وقبّل زوجه قبلة فى جبينها ، ثم مشى نحو الباب وهبط من السلم والعبيد حوله ، والحرّاس أمامه وخلفه ، حتى إذا وصل إلى البهو ، قام الناس جميعاً فى هيبة وخوف و إجلال ، وتقدم إليه رجال الدولة ، ورؤساء الجند ، وعظماء المدينة ، بالتهنئة والدعوات بتمام الإقبال وسعادة المولود . ثم تقدم الشعراء فأنشد كل منهم ما كان أسرعَ فى إعداده . وكان فارس حَلْبتهم فى هذا اليوم أحمد الأنصاريّ الشاعر ، الذى أنشد قصيدة سينيّة كانت غاية فى الإبداع . منها :

أصاخت الخيل آذاناً لصرخته
واهتزّ كلُّ هزبرٍ عند ما عَطَسَا
وآثر الدرعَ مذْ شُدّت لفائفه
وأبغضَ المهدَ لما أبصرَ الفرسا

و بعد أن انصرف القوم ، دعا الأمير بالمنجّمين ليروا طالع

المولود ، فاجتمعوا والرعب يملأ قلوبهم ، فقد كانوا يعلمون أنهم دعوا لأمر جدّ خطير ، وكان بينهم أبو مسلم الحضرمىّ الإشبيلىّ .

وبعد أن نظروا فى أصطرلاباتهم وقلبوا فى كتبهم ، أقبل بعضهم على بعض يهمسون : ماذا نقول للأمير ؟ فقال أحدهم : إن الطالع سيّء . وهز آخر رأسه فى أسف قائلاً : إن ما تقوله حقّ أبا الحسين . . . ولكننا عاهدنا صناعتنا ألاّ نقول الحقّ إلاّ إذا كان سارًّا . أو تضمّن شرًّا يمكن اتقاؤه .

فقال أبو مسلم : إن رءوسكم لا تكفى لإسكات غضب الأمير لو جبهتموه بسوء طالع ابنه ، ثم إن قتلكم لن يغيّر مما كتب فى صفحة القدر حرفاً ، ولن يقول الناس بعد أن تغيبوا فى القبور : برّد الله مثواهم ، لأنهم كانوا شجعاناً لا يبالون فى الحقّ صولة أمير جبّار . . . وهبوهم قالوا شيئاً من هذا ، فماذا يفيدكم قولهم وأنتم ترابٌ ؟ ! رحم الله ذلك الأعرابىّ الذى قيل له حين فرّ من القتال : ألا تخشى العار ؟ فقال : لأن يقولوا : فرّ لعنه الله خير عندى من أن يقولوا : مات رحمه الله !

فقال أبو الحسين : وماذا ترى أبا مسلم ؟ قال : أرى أننا خوّفنا الأمير منذ سنتين من خطر يدهمه ، من قوم يطرءون على

الجزيرة من غير سكانها ، فيجب أن نستمسك بهـذا ، وأن تظهر البشر والابتسام وحسن التفاؤل ، ونبلّغه بأن الطالع سعيد غير أننا لا نزال نلحّ فى اتقاء خطر الطارئين

فخرجوا على هذا الرأى ، ولما ألقوا كلتهم للأمير أطرق مردّداً: يفعل الله ما يشاء . . . الطّارئون . . . الطّارئون . . . دائمـا الطارئون ! !

ثم دعا بصاحب البريد ، وطلب إليه أن يسير توًّا إلى إشبيلية لينقل الخبر إلى أبيه .

وما كاد حمدون اللّخمىّ يتلقّى أمر مولاه ، حتى أسرع إلى خيل البريد فاختار أكرمها سلالة ، وأسبقها عدْواً ، وأقواها جلداً .

ومضى به يسابق الريح بين غياض فيح ، وحدائق نضر ، وأشجار فينانة مختلفة الثمار ، حتى أدركه الصباح عند « لَبلة » وظهرت له أسوارها المنيعة القديمة ، وما يحيط بها من أشجار الزيتون ومروج القرنفل والعصفر ، فاجتاز القنطرة التى فوق النهر ، ودخل المدينة تعباً ساغباً منهوك القوى ، فأخذ سمته إلى فندق فى سوق التجار . وما كاد الطعام يقدَّم إليـه حتى طفق يلتهمه التهاماً . وكان بالفندق فتاة أسبانية تنظر فى شئون

المسافرين ، امتزجت فيها الصحة بالجمال ، فكوّنت منها إنسانة حسّانة فاتنة عربيدة ، تُعرض عمّن يهيم بها ، وتدعو المعرض عنها أن يهيم بها ، حتى إذا اقتنصته أرته الدلال كيف يكون .

فلما رأت حمدوناً لا يرفع عينيه من وعائه ، يضع اللقمة فى فمه ويُعدّ أخرى ، وينظر إلى ثالثة . . . قالت له فى رشاقة تتخللها ضحكة خفيفة :

— يظهر أن الطعام صرفك حسن طهوه عن جميع الناس ! !

فرفع عينيه إليها فى بلهٍ أو تبالهٍ وقال :

— ماذا تقولين يافتاة ؟ ؟

— أقول : إن طعام «لبلة» أوطعام فندقنا خاصة ، يستهوى البطون ويحظى بغزلها وصبابتها .

فأعاد فيها حمدون النظر ، فرأى ما بهره وأطارصوابه ، أو أنه كان قد شبع قليلاً فتنبه قلبه بعد طول غفلته . فقال لها :

— أنظريني يا فتاتى حتى أُسكِت صياح تلك العصافير التى ملأت بطنى . . . إن غزل القلوب يأتى بعد غزل البطون .

— هذا أضعف الحبّ .

— أتؤثرين الحبّ الصائم ؟ ؟

— إن الحبّ الصحيح لا يدعك تحسّ جوعاً أو عطشاً .

— أنا أقبل أن يمسّنى هذا الحبّ ، بشرط أن يتساوى فيه الطرفان : أنا ، وأنت . فما رأيك فى أن يُسدّ علينا باب حجرةٍ من هذا الفندق مدى الحياة ، نستقى من رضاب الشفاه ، ونقضم تفاح الخدود ... ورمان النهود ؟؟ فتهانفت الفتاة فى دلال ، وقالت :

— انتظر حتى أصاب أولا بحبك ، ثم اقترح ما تشاء .

— آه منك يافتاة .... إنى أحتاج فى اجتذابك إلى وقت أطول من وقتى ، فإن ساعة لا تكفى لاقتناص مثلك .

فأجابت الفتاة ، وهى تلقى بسحرها ، وتعبث بعيونها :

— ساعة لا تكفى !! إنك مغرور عظيم التفاؤل يافتى .... ألا قلت : شهراً .... ألا قلت : سنة .... ألا قلت : دهراً .

إن لين الكلام ولطفه ، وتجاذب النظرات ، وتبادل الضحكات شىء ، والغرام شىء آخر . إن كل فتاة تحييكم بكلمة طيبة أيها الشبان تظنونها قد تدلهت فى حبكم ، ووقعت فى شباككم ؟؟

لا يا سيدى ، لا .... أنا لست من هذا الطراز .

— من هذا الطراز أو من غيره .... كلُّكن بنات حواء . عمى صباحا أيتها الفتاة .. واحتفظى بجمالك حتى أعود .

ثم وثب على جواده وهو لا يصرف عينيه عنها . حتى حال البعد بينهما . وأخذ جواده يمر بجبل الشّرف ، وهو تل أحمر التربة ، دائم الخضرة ، يمتد من الشمال إلى الجنوب نحو أربعين ميلا ، به كثير من القرى ، لا تكاد تُشمس من أرضه قطعة لالتفاف أشجار الزيتون به .

فسار حمدون فى ظل دائم بين هذه الأشجار ، حتى انتهى بعد خمس ساعات إلى « طَريانة » وهى إلى الشاطىء الأيمن من نهر الوادى الكبير ، تقابل من شاطئه الآخر مدينة إشبيلية . وما وصل حمدون إلى « طريانة » حتى سلّم قياد جواده إلى أحد رجال البريد هناك ، ونزل قاربا اجتاز به إلى إشبيلية ، ثم أخذ طريقه إلى القصر . فلما مثل بين يدى أبى القاسم محمد بن عباد — وكان رجلا داهية فى الرجال ، قد جلله الشيب وأطفأ منه الهرم كل قوة إلا قوة عقله ، وقوة إرادته ، وقوة نفوذ عينيه وشدة بريقهما — ابتدره أبو القاسم قائلا :

— خير ما جاء بك .

— خير إن شاء الله يا مولاى . . . . ولد غلام لسيدى عبّاد أمير باجة .

فاستشهد أبو القاسم :

إذا بلغ الرضيع لنا فطاما تخرّ له الجبابر ساجدينا

— وهل مررت بطريقك على بطليوس ؟ وهل سمعت شيئاً عن المظفر بن الأفطس أميرها ؟

— لا يا مولاى . إنى اتخذت أقصر طريق.

ثم أراد أن يتملقه فقال :

ولكنى سمعت بباجة : أن المظفر لا يزال عاكفاً على تأليف كتابه ، وقد بلغ فيه — فيما نقل إلىّ — إلى الجزء الرابع والأربعين

— وَىْ وَىْ . . . دعه يؤلف . . . إننا نؤلف له كتاباً سطوره صفوف الجيوش ، ونقطه أسنّة الرّماح .

السيف أصدق أنباء من الكتب

في حدّه الحدّ بين الجدّ واللّعب

عـــــــزاء

دار الفلك دوراته . . . ومضى نحو سنتين من ولادة محمد بن عبّاد ، والدنيا مقبلة على دولة بنى عباد ، والأيام تضاحك آمالها . حتى إذا كان يوم من أيام الربيع ، أقبل على قصر باجة فارس

يحثّ جواده وقد تصبّب منه العرق وجلله الغبار ، فلما دخل الفناء تواثب إليه الحرّاس والجنود من كل مكان ، فعرفوا فيه الحارث ابن ربيعة ، موضع ثقة الملك أبى القاسم صاحب إشبيلية . فابتدرهم الفارس وهو يلهث : أين مولاى عبّاد ؟ فأشاروا إلى داخل القصر ، فقفز الحارث حتى إذا مثل بين يدى الأمير ، أدّى كريم التحية ، وقال : يا مولاى . إن سيدى أبا القاسم قد اشتد به المرض منذ أيام ، وقد طلب إلىّ أن أسرع إليك لتراه .

فوجم عباد عند إلقاء الخبر إليه ، وبدا على وجهه مزيج من حزن وأمل وخوف وتفكير ، ثم قال : أتراه بارئاً يا ابن ربيعة ؟؟ فقال : يا مولاى إن المرض لشديد .

وما كاد يسرى الخبر فى القصر ، حتى سرى النحيب والنشيج بين الجوارى ؛ فغضب عبّاد وقال : إنهن فاجرات يملكن عيونهنّ . . . مَن صاحب بريدى أن يُعدّ « داحساً » فإنه أقوى خيلى على العدْو . ثم قام وودّع زوجه ، وتأهب للسفر إلى إشبيلية ، وأمر أن ترحل الأسرة والحاشية بعد يومين .

عدا الفرس بعبّاد كأنه البرق الخاطف ، حتى لقد عجز الحارث عن مداركته . وما كانت إلا ليلة وبعض نهار ، حتى وصل

عباد إلى إشبيلية وكان فى حجرة أبيه . فرأى شبحاً نهكته الأيام وافترسته الأمراض ، يردد أنفاساً قصاراً ، و يرسل أنّات خافتة فلما رآه أبو القاسم ابتسم ابتسامة ترحيب ، وأشار إليه بالجلوس ثم قال فى عبارات متقطعة :

إننا ملكنا يا عباد بالدهاء والحيلة ، ثم ثنّينا بعد ذلك بالقوة والبطش والجبروت . . . املك الجزيرة كلها أبا عمرو ، وابدأ بالأدارسة ، فإنهم أعداؤك وأعداء أبيك ... إنك لحىّ يا بنىّ ... إنك من بنى المنذر بن ماء السماء ، فلست بمحدَث فى الملك ولا واغل فيه . عند ذاك أقبل يحيى بن إسحاق الطبيب ، وفى يده كأس بها دواء ، فصرفه عنه أبو القاسم ، وقال :

وإذا المنيّة أنشبت أظفارها
ألفيت كل تميمة لا تنفع

ثم مال برأسه على وسادته ومات .

دفن أبو القاسم ، وأصبح عبّاد ملك إشبيلية وغرب الأندلس ، وسمّى نفسه بالمعتضد ، وكان عبّاد باقعة فى السياسة ، داهية فى اقتناص الفرص ، حُوّلا قلّبا .

وكان بعيد المستوى والمدى
يكون الصَّبا ويكون الدَّبورا

أسد يفترس وهو رابض ، وينصب المكايد وهو بين جواريه وكاساته وندمائه . . . قاس أشدّ القسوة ، وعنيد أشدّ العناد ، ومخيف أشدّ الإخافة . . . . لا يرحم قريباً ، ولا تقصُر ذراعه عن بعيد . وطّد دولته وقوّى جيشه ، ووسّع بغزواته ملكه ، ونصب فى حديقة قصره خُشُباً ربط بأعلى كل خشبة رأس ملك ، أو أمير ، أو قائد ممن ظفر بهم فى غزواته . وقد أكثر من الجواسيس حتى خافت الرعية أن تهجس بما فى نفوسها ، فدانت له الرقاب ، وذلّت الصعاب ، وقهر ملوك غربىّ الأندلس . وقد صور نفسه بنفسه حين يقول :

حميت ذمار المجد بالبيض والسّمرِ
وقصّرت أعمار العُداة على قسْرِ
ووسّعت طُرْق المجد طبعاً وصنعة
لأشياء فى العلياء ضاق بها صدرى
فلا مجدَ للانسان ما كان ضدّه
يشاركه فى الدهر بالنهى والأمر

ثم أعطى نفسه صورة أخرى حين قال :

لعمرىَ . إنى بالمدامة قوّالُ
وإنى لما يهوى النّدامى لفعّالُ

قسمت زمانى بين كدّ وراحة
فللرأى أسحار وللطيب آصال

فأُمسِى على اللّذات واللهو عاكفا
وأضحى بساحات الرياسة أختال

ولست على الإدمان أُغفل بغيتى
من المجد ، إنى فى المعالى لمحتال

قتــــل

استقر الملك للمعتضد وتتابع الانتصار ، واستمر الزمان يسير والأيام تتوالى ، وبلغ محمد بن عباد الحادية عشرة ، وكان قد أتقن القراءة والكتابة ، وشدا فى مبادىء العلوم ، فأحضر له أبوه فى القصر خير الأساتذة بالأندلس لتثقيفه وتلقينه ، فكان يعيش ابن دينار يدرس معه فقه الإمام مالك ، وبقىّ بن مخلد تفسير القرآن ، ومحمد بن أيمن الحديث ، وإسماعيل بن القاسم الأدب

والتاريخ ، والحوفىّ النحو ، وأبو القاسم الصفّار التنجيم ، ووكل إلى رئيس قواده تعليمه الفروسية وعلوم الحرب .

وكان الشّاب محمد وسيم الوجه ، ذكى الفؤاد ، صادق الحس ، قوى العارضة ، فسيح مدى الخيال ، فيه كثير من الجرأة والشجاعة ، وشىء من التهور والعجلة ، وكان مولعاً بقراءة الشعر ، وأكثرُ ما يعجبه فيه شعر الغزل والحماسة .

وقد استمرت دراسته ست سنين ، خرج بعدها كامل التثقيف وافر العُدة للملك والرياسة .

جلس إلى إسماعيل بن القاسم يوماً بعد أن تمكن فى الأدب ، فلما انتهى الشيخ من شرح قصيدة عمر بن أبى ربيعة :

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر غداة غد أم رائح فمهجّر

وكان ابن عباد قاسياً فى نقدها ، التفت إلى أستاذه وقال : ما يقول الشيخ فى هذين البيتين :

أكثرتِ هجرك غير أنك ربّما عطفتك أحياناً علىّ أمورُ
فكأنما زمن التهاجر بيننا ليل ، وساعات الوصال بدور

فقال الشيخ : هذا شعر حسن . لمن هذان البيتان ؟ فقال ابن عبّاد : وما تظنّ فى هذه الأبيات ؟ ؟

تظنّ بنا أمّ الربيع ســـآمة
ألا غفر الرحمن ذنباً تواقعــه
أأهجر ظبياً فى فؤادى كِناسه
وبدرَ تمام ، فى ضلوعى مطالعه ؟
وروضةَ حسن أجتنيها ، وبارداً
من الظّلّ ، لم تُحظر علىّ شرائعه ؟
إذاً عدمت كفّى نوالاً تفيضه
على معتفيها ، أو عدواً تقارعه

فطرب الشيخ وصاح : هذا والله الشعر ، لمن هذا ؟ فقال ابن عباد : للجالس بين يديك ، الذى طابت بأدبك أصائله ، وغنّت بلابله . فقال الشيخ : مرحى يا ابن مولاى مرحى ! ! هذا هو شعر الملوك ، ومن سواك يقول مثله ، وفيكم الرياسة والأدب والشعر منذ عهد ابن المنذر ؟

خرج الشابّ والعُجب يملأ جوانبه ، فالتقى بأخيه إسماعيل فى أحد دهاليز القصر ، فأنشده الأبيات ، فبُهر إسماعيل وقال :

— ويلك يا محمد ! ! أغزل فى هذه السن ؟ ! والله لو علم أبوك ما سلمت من عصاه . فأجاب محمد :

— إن الناس يتناقلون لأبى كثيراً من شعر الغزل .

— إن الكلب الغاضب ينبح ، فإذا حاكيت نباحه وثب عليك .

— هذا تشبيه عجيب يا إسماعيل . . . . أتشبّه أبى بالكلب بعد أن قدّمك على إخوتك وجعلك ولىّ عهده ؟ !

— أما تشبيهى إياه بالكلب ، فقد سبقنى إليه على بن الجهم فى مدح المتوكل العباسى حين قال :

أنت كالكلب فى حفاظك للودّ وكالتيس فى قراع الخطوب

— ذلك كان أعرابياً جافياً جاء من البادية ، ولم تصقله الحضارة ، ولكن الله تعالى يقول :

« فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث » فدع المغالطة يا إسماعيل . ثم أين « أمّا » الثانية ؟

— وأمّا ولاية العهد ، فهى فى يد الرحمن . . . الرجل كثير التقلّب يا محمد لا يثبت على حال ، وعيونه حولك وحولى فى كل مكان . أتعرف جاريتى « ماريا » التى تضرب الحاشية بها المثل فى فنائها فى حبىّ وطاعتى ؟ أتعرف أنها جاسوسة له علىّ ؟ !

— جاسوسة ؟ !

— نعم جاسوسة . وقد حذّرتنى أمى منها بعد أن وعظتنى طويلا ، ونصحتنى بالابتعاد عن الاتصال بالجنود ، وبالتزام الطاعة فى كل ما يأمر به أبى . ولقد يحسن بك أن تعلم أن الجارية « فلورا » تتجسس عليك أيضاً ، وتنقل أخبار لهوك وعبثك إلى أبى .

— من أخبرك بهذا ؟

— أخبرتنى الجارية «صباح» لأنها رأتها تختلف إلى حجرة أبى ، وهى تعلم أن الغيرة تنهش صدرها عليك ، لما تظهر من الصبابة والغرام بالجاريتين : سِحْر ، وجوهرة .

— ويل لابنة الأسبان . . .

— هذا ما يجب أن تخشاه يا محمد ، أمّا أنا فما ذنبى ؟ !

— حدّة الطبع والتشبث بالرأى ، والعجلة التى تدعوك أحيانا إلى جنى الفاكهة قبل نضجها ، وللفقهاء قاعدة مليحة يرددونها : من استعجل الشىء قبل أوانه ، عوقب بحرمانه .

وبينما هما يتحادثان ، أقبل « صاعد » خادم المعتضد الخاص ، يدعو إسماعيل لمقابلة أبيه ، فهرول مسرعا ، حتى إذا دخل عليه رآه مطرقا عابساً ، فقال اجلس يا إسماعيل . . . لمثل هذا اليوم

أعددتك . . . أتعرف قرطبـة ؟ هى قصبة الأندلس جميعها . . . هى رقبتها ، فإذا حزتها فى قبضتى أخفت الملوك جميعاً ، وسيطرت عليهم جميعاً . . . . خذ الجيش غداً . . . وهات لى قرطبة بعد ثلاثة أيام . . . . قم .

فتلكأ إسماعيل وقال : ولكن يامولاى ، جيشنا قليل العدد و إن بقرطبة جيشاً عظيما تؤيده العامة ، وليس ببعيد أن تستنجد قرطبة بحليفها باديس بن حَبّوس ، فيقع رجالى بين شقى الرحا .

فصاح المعتضد : لقد صدق فيك ظنى . . . . إنك لجبان رعديد منخوب الفؤاد . . . بمثلك تضيع الممالك وتهزم الجيوش . . اعزب عنى . . . اعزب . ثم وثب عليه ففرّ من أمامه .

فرّ وهو يعتقد أنه مائت لا محالة لو بقى فى عرين هذا الأسد ، فاختفى بعيداً عن إشبيلية أياماً ، ثم علم أن أباه قد غاب عن القصر ، وذهب إلى حصن الزّاهر . فعاد إسماعيل إلى إشبيلية ، واقتحم القصر وأخذ كثيراً من ذخائره ، واستكثر من المال والمتاع ومضى مع بعض الجند الموالين له إلى الجزيرة الخضراء ، ومرّ فى طريقه بقلعة ابن أبى حصاد فاستجار به فأجاره ، ولكنه بادر بالكتابة إلى المعتضد سرّا يخبره بنزول ابنه عنده ، فأرسل إليه

المعتضد من أعاده إلى إشبيلية ، فاعتقله المعتضد ، وبقى أياماً يقلّب الرأى فى أمره .

حتى إذا كانت ليلة — والمعتضد أرِق يتقلب على سريره لما دهمه من الهمّ والنكد — لمح رجلا يتسوّر عليه القصر ، فنظر ، فإذا هو ابنه مع طائفة من الجند كانوا يمالئونه ، فهمّ المعتضد وهمّ معه حرّاسه ، وقبض على إسماعيل ابنه ، وحدثت ضجّة فى القصر استيقظ لها النوّام ، وجاءت أمّ إسماعيل حاسرة عن رأسها باكية مولولة ، فسقطت على قدمى المعتضد صائحة : بحقّك يا مولاى إلاّ ما وهبته لى . . . . فزجر المعتضد وقال ، وقد نحّاها عنه : يكفى أن أهب لك نفسك ، فقد سئمت الموالسة والمخالسة ، ولن أكون كالمتوكل العباسىّ الغرّ ، الذى ما زال يغمض عينيه عن الخطر ، ويستجيب للحنان الكاذب — حتى صرعه ابنه ، والآن فليهنأ برثاء البحترىّ ! لا . لا . . .

ثم قام إلى إسماعيل فحزّ رأسه بسيفه وهو يقول :

« إنّ من أزواجكم وأولادكم عدوّاً لكم فاحذروهم »

ولو أن كفّى لم تطعنى قطعتها وألقيتها للكلب يقضَمها حولى

عبث

وكرّت الأيام وتوالت الشهور ، والقصر فى صمت القبور ، والوزراء والأمراء والخدم يمشون فيه واجفين مطرقين ، ومحمد بن عباد — بعد أن جعله أبوه ولىّ عهده ولقّبه بالمعتمد — أصبح لا يكاد يؤدى واجب تقبيل يد والده كل صباح ، حتى يفرّ إلى أخدانه من أبناء كبار السّاسة والأدباء والشعراء ، وكان يطيب له اللهو بالزّاهى ، وهو قصر عند باب العطّارين بإشبيلية ، فيه كان يخلع عذاره ويرسل لطبعه الشعرىّ عنانه . ففى يوم دعا جماعته إليه ، وطاب المجلس ، وغنّت القيان ، ودارت الراح ... وكان بينهم الدانىّ الشاعر ، وأبو بكر بن زيدون ، وأبو القاسم الهوزنىّ ، ثم شرعت « نشوة » المغنية تغنّى بشعر المعتمد :

ولقد شربت الراح يسطع نورها
والليلُ قد مدّ الظلامَ رداء
حتى تبدّى البدر فى ظلمائه
ملكا ، تناهى بهجة وبهاء

وحكيتهُ فى الأرض بين مواكب
وكواعب جمعت سناً وسناء
إن نشّرت تلك الدروعَ حنادسا
ملأت لنا هذى الكئوسَ ضياء
وإذا تغنت هـــذه فى مزهر
لم تألُ تلك على التّريك غِناء

فطرب القوم ، وقام بين يديه أحد سقاته فقال :

لله ساق مهفهفٌ عبقٌ ... قام ليسقى فجاء بالعجب
أهدى لنا من لطيف حكمته ... فى جامد الماء ذائبَ الذهب

ثم غنّت « نشوة » من قول المعتمد :

يا صفوتى من البشرْ ... يا كوكبا بل يا قمرْ
ياغُصُناً إذا مشى ... يا رشــأ إذا خطر
يا نفَسَ الروضة قد ... هبّ لنــا عند السحر
يازبّة اللحظ الذى ... شدّ وَثاقى إذ فتر
متى أداوى يا دوَا ... ء السمع منى والبصر
ما بفؤادى من جوى ... بما بفيك من خَصَرْ ؟

فأبدعت إنشاداً وإيقاعاً .

ثم التفت المعتمد وقال : أين ابن عمّار ؟ فتهامس القوم ، وقال أبو بكر بن زيدون : يا مولاى : إنه دون هذه المنزلة ، وهو رجل لاتؤمن مغبّته يرتزق بشعره ، ويمدح اليوم من يهجوه غداً .

فظهر الغضب فى عينى ابن عباد وقال : والله إنها الغيرة التى تأكل القلوب ، وتظهر البغضاء على الأفواه ، وليس منكم والله من يستطيع أن يقول كما قال ابن عمار :

عليّ وإلاّ ما بكاء الغمائم ؟ وفيّ وإلاّ فيم نوح الحمائم ؟

يا غلام : اذهب فأحضره ، ولو كان بين براثن الأسد .

وبينما هم فى انتظاره إذ أقبل صاعد خادم المعتضد مسرعاً حتى إذا بلغ المعتمد قال : يا سيدى إن مولاى يدعوك إليه لأمر لا أعلمه . فبدا الخوف فى وجه المعتمد ، وتمتم لأصدقائه بكلمات يعتذر فيها عن مغادرتهم .

كان المعتضد فى مساء ذلك اليوم منفرداً فى الحجرة التى خصصها بتدبير شئون ملكه ، وإذا الباب يقرع قرعاً خفيفاً ، وإذا الجارية « فلورا » تدخل فى اضطراب ورعب

فيعاجلها المعتضد صائحاً : ما وراءك ؟ ؟

فتتلعثم قائلة : يا مولاى قد طلبت إلىّ أن أرصد أحوال

سيدى المعتمد ، وقد تسللت اليوم إلى غرفة نومه ، فرأيت فيها هذه الأوراق التى لا أدرى ما فيها ، فقلت : لعل لمولاى فيها رأيا .

فاختطفها منها المعتضد وقرأ ، فإذا غزل رائع لابنه المعتمد. فيه :

داوَى ثلاثته بلطف ثلاثة   فغدا بذاك رقيبُه لم يشعرِ
أسرارَه بتستّر ، وأواره   بتصبّر ، وخباله بتوقّرِ

وفيه :

أسر الهوى قلبى فعذّبنى   يوم الوداع فلم أُطق منعا
فأذاب حَرُّ صبابتى كبدى   وأسالها فى وجنتى دمعا

وفيه :

حرّم النومَ علينا ورقدْ   وابتلانا بهواه ثم صدّْ
يا هلالاً حسنَ خدّ ، يا رشا   سحرَ لحظ ، يا قضيبا لينَ قدّ
بودادى لك ، بالشوق الذى   فى فؤادى ، لا تدعنى للكمد
لست أرضى عن زمانى أو أرى   منك حسنا لا أراه من أحد

وفيه :

يا ليت مدّة بُعدكْ   رشيقةٌ مثل قدّكْ
كمدّة الورد وردِ الرّ(م) بيع ، لا ورد خدّكْ

فعمر ذا عمر صــبرى   وعمر ذا عمر صــدّك
رضيت منك — وإن لم   تنجز — بلذّة وعـدك

وفيه :

سرورنا بَعْـدكُمْ ناقصُ   والطّيب لا صافٍ ولا خالصُ
والسعد إن طالعنـا نجمه   وغبتِ، فهو الآفل الناكص
سمّوكِ بالجوهـــر مظلومةً   مثلُك لا يدركه الغائص

وفيه :

قلتُ : متى ترحمــنى ؟   قال : ولا طول الأبدْ
قلت : فقــد أيأستنى   من الحياة ، قال : قدْ

وفيه :

يا غرّة الشمس الّتى   قلبى لهـا أحد البروج
لولاك لم أك مؤثرا   فرش الحرير على السروج

فبدا الغضب على المعتضد عند ما قرأ البيتين الأخيرين ، وقال : يا ضيعة الملك بمثله ! ! إنه لأجل جارية لا تساوى عقال بعير ، يؤثر الحرير على السروج . . . . اذهبي يا جارية . . . . يا صاعد . . . . علىّ بمحمد ، ولعلك تجده فى أحد مجالس أنسه، بين الأفّاقين من ندمائه ، والعواهر من جواريه وقيانه .

وقف المعتمد بين يدى والده يرتعد فرقا ، فابتدره المعتضد :

إنى لا أحظر الشعر ولكنى أحظر الفجور ، وأحظر أن تؤثر فرش الحرير على السروج ، وأبغض أن أراك عبد شهواتك صريع غانية وكأس ، وأكره أن تكون بطانتك من السفلة المخادعين ، الذين لا يبالون أبقيت الدولة أم زالت ماداموا يطعمون ويشربون .

إن السيف الذى قتلت به أخاك لا يزال الدم عليه جاسداً .. ويل للدولة من الخلعاء .. ويل للدولة من الخمر والنساء .

يا محمد : إن أردت أن تكون خليفتى من بعدى ، فاجعل كلماتى هذه فى أذنيك أقراطاً . اذهب .

خيبـــــــة

أراد المعتضد أن يصرف عن ابنه إخوان السوء ، وأن يدرّبه على شئون الملك ، فدعاه فى غداة يوم ، فلما ذهب إليه رآه يقرأ فى رسالة ، فرفع المعتضد عينيه وقال : هذه يا محمد رسالة من أشياخ « مالَقَة » يشكون فيها من أميرها باديس بن حبّوس عدو دولتنا الألد ، ويستحثّوننى على أخذ المدينة وأن يكونوا لى عوناً فى قتاله ، فاذهب أنت وأخوك جابر بجيوشنا واستأصل جماعة

ابن حبّوس ، وهات لى رأسه ... غداً ترحل .

لم يجد المعتمد مناصاً من الطاعة أمام رجل لا يعف سيفه عن أبنائه ، فقال : السمع والطاعة لك يا أبى .. سأرحل ، وسأكون ابن المعتضد والحقيق بنسبه .

رحل المعتمد وأخوه جابر يقودان جيشاً عظيما ، فدان لهم البلد وخضع أهله إلاّ فلولاً من السودان لاذوا بقلعة مالقة ، فأشار أهل المدينة على المعتمد بالاحتراس منهم ، وأن يكون جيشه على أهبة الاستعداد والحذر ، فلم يُلق المعتمد لهذه النصيحة سمعاً ، وقضى ليلته فى لهو ومجون ، وقضى السودان ليلتهم فى بثّ الرسل لباديس والاستنجاد به ، فجاءهم فى جيوش زاخرة وفتك بجيش المعتمد وانتهب ذخائره وأثقاله ، وفرّ المعتمد وأخوه إلى «رَندة» يجرّان ذيل الخزى والعار ، ويرهبان صولة أبيهما الجبار .

كان المعتمد فى حيرة فقال لأخيه : ما نصنع يا جابر ؟ ؟

— إنى أوثر أن أغمد سيفى هذا فى صدرى على أن أرى وجه المعتضد .

وشاعت القالة فى « رندة » أن المعتضد نذر دم ابنه المعتمد ، وأعدّ لمقابلته سيفاً بتاراً ، فقضى المعتمد ليله فى همّ وسهد ،

يكتب ويمحو، ثم يكتب ويمحو، و بزغ الفجر وقد أتمّ قصيدة فى استعطاف أبيه ، ثم ذهب فأيقظ أخاه وقال : اسمع يا جابر، سأكتب بهذه لأبى ، وقرأ :

سكّن فؤادك لا تذهبْ بك الفكرُ
ماذا يُعيــد عليك الهمُّ والحذَرُ ؟

وازجر جفونك لا ترض البكاء لها
واصبر، فقد كنت عندالخطب تصطبر

فإن يكن قَدرٌ قد عاق عن وطر
فلا مردّ لما يأتى به القــــدرُ

وإن تكن خيبةٌ فى الدهر واحدة
فـكم غزوت ومن أشياعك الظفر !

يا ضيغماً يقتل الأقرانَ مفترساً
لا توهنّى ، فإنّى النّـاب والظفر

كم وقعــة لك فى الأعداء واضحة
تفنَى الليالى ولا يفنى بها الخــبر

سارت بها العيس فى الآفاق فانتشرت
فليس فى كل حىّ غيرَها سمر

قد أخلفتنى ظنونٌ أنت تعلمها
وغال مورد آمالى بها كدر
فالنفس جازعة ، والعين دامعة
والصوت منخفض ، والطرف منكسر
قد حُلت لوناً ، وما بالجسم من سقم
وشبت رأساً ، ولم يَبلغنى الكبر
ومتُّ إلاّ ذَماء فىَّ يُمسكه
أنّى عهدتك تعفو حين تقتدر
لم يأت عبدك ذنباً يستحق به
عُتبى ، وها هو قد ناداك يعتذر
ما الذنب إلا على قوم ذوى دغل
وَفَى لهم عدلك المألوف إذ غدروا
قوم نصيحتهم غشٌّ ، وحبّهمُ
بغض ، ونفعهم إن صُدّقوا ضرر
يُميِّز البغضُ فى الألفاظ إن نطقوا
ويُعرف الحقد فى الألحاظ إن نظروا

أجب نداء أخي قلب تملكه
أسًى ، وذى مقلة أوهى بهـا سهر
رضاك راحة نفسى ، لا فجعتُ به
فهـــو العتاد الذى للدهر أدّخر
وهو المدام التى أسلو بها فإذا
عدمتها عبثت فى قلبي الفكر
وإنمـا أنا ساع فى رضاك فإن
أخفقتُ فيــه ، فلا يَفسَحْ لى العمر

فظهر السرور على وجه جابر وصاح : نجوتَ من صولة الحجّاج ... إنّ أبى على قسوته وجبروته أديب أريحىّ يؤثّر فيه سحر الكلام ، والله إنها لخير من اعتذار النابغة لجدّك النعمان . . . . ابعث بها إليه يا أبا القاسم على جناح طائر .

فبعث بها المعتمد إلى أبيه وبقى أياماً خائفاً يترقب حتى جاء البريد الخاص برسالة من المعتضد ، يقبل فيها عذره ويقلّده ولاية « شلب » ، ويأمر جابراً بالعودة إلى إشبيلية . فطار الأخوان فرحاً وتعانقا كأنهما قاما من جدَثَيْن وأخذا يستقبلان الحياة من جديد .

ولاية

سافر المعتمد إلى شِلْب متمتعاً برضاء أبيه ، وقلبه يكاد يسابق جواده . وشِلْب هذه مدينة إلى الجنوب من باجة ذات بسائط فسيحة ومروج خضر ، وبها جبل منيف بديع المناظر ، به كثير من المياه وأشجار التفاح العجيب .

وسكان المدينة عرب من اليمن ، وهم مطبوعون على قول الشعر ، حتى إن العامىّ منهم ليقول الشعر فى كل ما يقترح عليه . نزل المعتمد بقصر الشراجيب ، وأرسل إلى جواريه وخدّامه وحاشيته بموافاته إليها ، وأقبل عليه عظماء المدينة يتملقونه ، وعلماؤها يصانعونه ، وشعراؤها يستجدونه ، ووفد عليه ابن عمّار صديقه وشاعره ووزيره ، الذى كان المعتمد لا يصبر على فراقه ، فاتّسقت الأمور للأمير ، وقضى فى هذه الولاية سنوات سعيدة .

وكان يقضى النهار فى تصريف شئون الدولة وإصدار الأوامر فى حزم وسداد ورفق وتؤدة ، ويقضى الليل فى قرض الشعر ، أو مجالسة الحسان . وفى ليلة وإلى جانبه ابن عمار وحوله جواريه ، وبينهنّ « سِحْر » تغمز له بعين ، و « وداد » تقدم له الكأس

فى دلال ورشاقة ، والمغنّية « فتنة » تغنّى من شعره قوله :

اشرب الكأس فى وداد « ودادك »
وتأنّسْ بذكرها فى انفرادك
قمر غاب عن جفونك مرآ
ه وسكناه فى سواد فؤادك

إذا سيف رئيس الخدم يدخل ويقول : إن أبا القاسم بن عمر الهوزنىّ بالباب ، فصاح المعتمد مستبشراً : يدخل . . . إنه لصديق كريم رفيع الحسب .

دخل أبو القاسم فبادره المعتمد قائلا : لم أبطأت علينا وقد بعثت إليك برسولى إلى إشبيلية مرتين ؟ فأجاب أبو القاسم : إن الذى عاقنى عن الإسراع إلى الحضرة قدوم أبى من المشرق منذ شهر ، بعد أن طالت غيبته ، فأحببت أن أكون بجانب الشيخ آنس به ويأنس بى ، وأبلّ من نفسى شوقاً كان يتأجج لرؤيته . فقال المعتمد : لقد سمعت أنه كان شديد الخوف من بطش أبى به ، وأنه لذلك اتخذ الذهاب إلى الحج ذريعة للابتعاد عنه ، فأقام زمناً طويلا بمكة ومصر ، والآن عاد إلى أشبيلية ، فهل اطمأنت نفسه وذهبت مخاوفه ؟ ؟ حرّق أبو القاسم أسنانه ،

وكتم غيظاً دفيناً فى نفسه وقال :

لا يا مولاى . هذه أكذوبة يذيعها أعداؤه . . . . إن الخوف لم يكن مرّة من شيم أبى ، وقد اشتهر بأنه جرىء فى الحق لا تأخذه فيه لومة لائم . . . . إنه غاب تلك المدة الطويلة لأنه كان يتلقى صحيح البخارى ، ليصل روايتــه بسند رجاله حتى يأخذه عنه أهل الأندلس .

كان أبو القاسم هذا فى نحو الثلاثين ، قوىّ البنيان فارهاً ، يدلّ ضيق عينيه على المكر والخديعة ، وتدلّ رقة شفتيه على القسوة والصرامة ، ويدلّ صَيَد فى رأسه على اعتزاز بالنفس ، وعلى عزيمة لا تترك ثأراً ولا تصفح عن ذنب . قال المعتمد :

— وكيف تركت المعتضد ؟ ؟

— فى أوج عزّه ... فقد دان له غرب الجزيرة كله . وأصبح له الملوك خولاً وأتباعاً ، فملأ مديحه كل فم ، وجوده كل كف .

فصاح المعتمد : غنّى يا فتنة بما قلته فى أبى :

يا ملكا قد أصبحت كفه ساخرة بالعارض الهاطل

قد أفحمتنى منّــة مثلهــا يضيّق القول على القائل

وإن أكن قصّرت فى وصفها فحسنها عن وصفها شاغلى

واستمر اللهو والضحك والمجون ساعات .

ثم التفت المعتمد وقال : أين ابن عمار ؟ . . . . يا سيف . . . . اذهب فانظر فى أى مكان من القصر هو . فذهب سيف وقال : بحثت فى كل الحجرات يامولاى فلم أجده وسألت حرّاس الباب فقالوا : إنهم لم يشهدوه خارجاً . فبدا الاختبال على وجه المعتمد وكأنما فقد نفس الحياة ، فقام وقال : هات شمعة ياسيف لأبحث عنه معك .

ثم سارا فى أنحاء القصر ، والمعتمد زائغ البصر ينظر فى كل مكان ، حتى إذا بلغا ، بعد بحث طويل ، أحد دهاليز القصر ، رأى المعتمد حصيراً مطويّا فقال : ابسط يا سيف هذا الحصير . فقال سيف : أيظن الأمير أن مثل الوزير يلتف بحصير ؟ ! فبسط المعتمد الحصير بنفسه ، فإذا ابن عمار فيه وهو عريان وقد غلبه السكر وذهبت بلبه الخمر ، فلما أحس البرد أفاق وقام وهو يستر نفسه بفضلة من الحصير ، وقد أفحمه البكاء ، ففاضت عينا المعتمد ، وأمر طائفة من الخدم بحمله إلى سريره ، ثم ذهب إليه بعد أن هدأت نفسه ، وقال :

— ما هذا يا ابن عمار ؟! وما هذه الفعلة ؟! أأصابك جنون ؟!

— هو جنون أو شبه جنون يا مولاى ، إننى كلما أخذت منى الخمر فى حضرتك ، وأحسست بالنعيم يحيط بى ، والنعم التى طوقتنى بها ، والمنزلة الرفيعة التى بلغتنى إياها ، والشغف بى الذى لا تستطيع كتمانه — أسمع هاتفا فى أذنى يقول : يا ابن عمار لا تغتر ، إنه سيقتلك ولو بعد حين . فأستعيذ من الشيطان ، فيعيد الهاتف الكرة ثانية وثالثة . وقد حصل ذلك يا مولاى فى هذه الليلة ، فدعانى السكر إلى التجرد من ثياب الإمارة ، والنوم إلى الفجر ، حتى إذا ظهر أول بصيص منه ، ارتديت ما اعتدته من الثياب قبل الاتصال بك ، وخرجت مستخفياً حتى آتى البحر ، فاركبه وأقصد برّ العُدوة . فضحك المعتمد وقال : هذه آثار الخُمار يا أبا بكر . وكيف أقتلك ؟ ! أرأيت أحداً يقتل نفسه ؟ ! وهل أنت عندى إلا كنفسى ؟ ؟

وفى الصباح ، ورد صاعد خادم المعتضد ومعه أمران : الأول أن ينفى ابن عمار إلى سَرَقُسْطَة . والثانى : أن يعود المعتمد إلى إشبيلية .

حزن المعتمد أشدّ الحزن ، وودع صاحبه وخليله ابن عمار ، والبكاء يغلب عينيه ، ثم أمر بالرحيل إلى إشبيلية .

وبعد أن اجتاز حدود المدينة وبعدت عنه مشاهدها ، أخذ يقول :

ألاَ حيِّ أوطـــانى بِشِلْبٍ أبا بكر
وسَلْهنّ هل عهد الوصال كما أدرى ؟
وســلِّم على قصر الشراجيب عن فتى
له أبداً شـــــوق إلى ذلك القصر
منازلُ آســـــاد وبيض نواعم
فناهيك من غِيل ، وناهيك من خدر
فكم ليـــــلة قد بتّ أنعَم جنحها
بمخصـــبة الأرداف مجدبة الخصر
نضت بُردها عن غصن بانٍ منعّم
نضير ، كما انشق الكمام عن الزهر

نجائع

جلس المعتضد فى الصباح فى حجرة نومه وأطال الجلوس ، ثم دعا صاعدا وأمره أن يحضر ابنته بثينة ، وكان شديد الكلف بها حتى أصبحت متعته الباقية من الحياة .

جاءت بثينة وخلفها جاريتها ، وهى تثب وثبة الجذل وتصيح : أبى ، أبى . ثم ألقت بنفسها بين ساعديه وأخذ يقبلها فى شغف وحنان ، ثم مرّت بيدها على لحيته تجتذب شعراتها فى رفق ، والمعتضد يعبث بخديها ، ويمرّ بشفتيه حول عنقها وهى تضحك وتقهقه .

كانت بثينة فى السادسة من عمرها بارعة الجمال ، خفيفة الروح ، لا تشبع العين من رؤيتها . وحين فرغ المعتضد من مداعبتها قال :

— ماذا كنت تعملين يا بنيّة ؟

— كنت ألعب وأعدو خلف بنات القصر ، وكانت جاريتى تنهانى عن الصياح والوثب ، وتخوّفنى غضبك إذا سمعت صياحى .

— لا تخافى يا حبيبتى ، والعبى وصيحى كما تشائين . . . . آه يا بثينة . . . ليتنى ألعب وأصيح مثلك ! !

— لماذا لا تلعب يا أبى ؟ تعال معنا فإننا قد عرفنا لُعبة جديدة علمتنا إياها « جميلة » الأسبانية .

— إن لى يا بنيّتى لعبًا أخرى ، ولكنها لا تُضحك ، وكثيراً ما تبكى ! !

— آه .. يجب أن تضحك يا أبى ، فإنى أراك دائم العبوس .. ثم لماذا يخافك الناس جميعاً ولا أحس فى نفسى خوفاً منك ؟ !

— لأنك صغيرة .

— لا . إن جميع الأطفال فى القصر يخافونك .

— لأنهم يتشبهون بآبائهم وأمهاتهم .

— ولِمَ يخافك الآباء والأمهات يا أبى ؟

— آه يا بنيّتى ! ! لأنهم يخفون عنى ما لو ظهر لطارت رءوسهم ، ولو كان الناس جميعاً فى طهارتك ونقاء قلبك ماخافونى .

وفى تلك اللحظة ، أعلن قدوم المعتمد ، فدخل على أبيه فى ثياب السفر ، فقال له المعتضد : أحببت أبا القاسم أن تكون بجانبى وتحت عينى فدعوتك ، أما هذا الشاعر المجتدى العربيد ابن عمار ، فنفيته ، لأنه ليس من أخدانك ، ولا أحب أن أراه معك .. اذهب إلى أمك فلعلها فى شوق لأن تراك .

قضى المعتمد أيامه فى إشبيلية فى فراغ ولهو ، وعاد إلى مجالس

أنسه ، ومخالطة الأدباء والندماء ، ومطارحة الشعر ، ومغازلة الحسان .

ففي يوم طاب أصيله ، ورقّ نسيمه ، خرج للتنزه هو وأبو القاسم الهوزنيّ في الموضع المعروف بمرج الفضّة ، وكان مرجاً بهيجاً ، كثير الأشجار ، يجتمع فيه الرجال والنساء للفرجة والتمتع بشاطئ نهر الوادي الكبير . .

وبينما هو وصاحبه على الشاطئ ، إذ هبت ريح لطيفة عقدت على سطح النهر حُبُكا ، فقال لصاحبه : أجزْ :

* صنع الرّيح من الماء زَرَدْ *

فتلكأ الهوزنيّ ، فبادرت فتاة كانت بمقربة منهما ، وقالت :

أيّ درع لقتال لو جَمَدْ !

فتعجب المعتمد ، ونظر إليها ، فإذا وجه يبهر العيون ، وجسم يثير الفتنة النائمة . فقال لخادم كان وراءه : سل عن هذه الفتاة واعرف مكان أهلها ، فإنها سلبت لبّي ، فجاء الخادم بعد يومين وأخبره أنها جارية رُمَيْك بن حجاج ، فذهب المعتمد إلى أمه فكاشفها بغرامه بهذه الجارية ، وأنها أصابت شَغاف قلبه ، وأنه لا يستطيع البعد عنها ، وسألها أن تستعطف أباه وترجوه في أن

يزوجه منها ، فوعدته خيراً .

ثم اغتنمت فى يوم فرصة ابتسامة اختلست طريقها بين شفتى المعتضد ، فقالت : يا مولاى . إنى نظرت اليوم من خلال نافذة القصر ، فرأيت المعتمـد بين قواد الجيش وعليه مهابة وجلال ملأا جوانب نفسي زهواً و إعجابا . إن كل لمحة من لمحاته يامولاى ، تقول إنه ملك ، وقد وقف الرؤساء أمامه خاشعين وهو يشير بأصبعه هنا وهناك ، فى حسن سمت ، وجلالة موقف .

— إنه ابنى ياطاهرة ، وفيه دم ملوك بنى المنذر ، و إن أخوف ما أخافه عليه تلك النزعة الجائعة إلى اللهو والعبث .

— إنه فى ميعة شبابه يامولاى ، ولو نظر كل شيخ نظرة إلى الوراء لأغضى عن هفوات الشباب .

— لـكن لا ياطاهرة ، إن التمادى فى الشهوات نكبة الملوك ، وكارثة العروش .

— لعله لو تزوج بمن يحبّ كفّ وارعوى .

— هو كالعصفور المرح لا يثبت على غصن ، له نقرة فى كل ثمرة ، فإذا فرغ من نقر الثمار ، ملأ الجوّ غناء وشدوا .

— لا يامولاى . إنه يريد أن يفرُغ إلى شئون الملك بالزواج،

وقد أحبّ جارية أديبة مهذبة عاقلة ، لرميك بن حجاج ، وألح في أن أطلب إليك أن تزوّجه منها .

— قد يصبر المرء على مرّ الدواء إذا كان فيه شفاؤه ، فليتزوجها لو كان في ذلك أن يُقْصِر باطلَه ، وترعوى نوازعه .

دُعى في اليوم الثاني رميك بن حجاج إلى القصر ، ونزل عن جاريته للمعتمد فأعتقها وتزوّج منها ، وكان لها الأثر الكبير في حياته وسياسته ، وسمّاها (اعتمادا) ليشتق اسمها من اسمه ، وهو يقول في تطريز اسمها وقد أرسل إليها برسالة شوق وهو بعيد عنها :

أغائبة الشخص عن ناظرى وحاضرة في صميم الفؤاد
عليك السلام بقدر الشجون ودمع الشئون وطول السهاد
تملكتُ منكِ شَمُوس الحِران وصادفت منّىَ سهل القياد
مرادىَ أعياك في كل حين فياليت أنّىَ أعطى مرادى
أقيمى على العهد في بيننا ولا تستحيلى لطول البعاد
دسست اسمك الحلو في طيّه وألّفت منه حروف اعتماد

مرت شهور على زواج المعتمد وهو سعيد بحبه ، يزيد في كل يوم بالرُّميكية هياماً ، ويفنى في نظراتها غراماً ، فلندعه في نشوته ولننتقل لنرى المعتضد في قصره ، والقواد والرؤساء وقوف في

خدمته ، وقد قدم لزيارته العالم الحسيب أبو حفص عمر الهوزنيّ ، فسلم على المعتضد وجلس ، ثم قال :

جئت إليك أبا عمرو ، لأسدى إليك نصحاً لم أستطع كتمانه، وكلما سوّفت فيه ، اعتقدت أننى خائن لله ولك وللمسلمين .

إن أعداءنا الأسبان لا يتركون فرصة لقصّ البلاد من أطرافها إلاّ اهتبلوها ، وهم لا ينامون عن غزو البلاد والإيقاع بملوكها ، وإثارة بعضهم على بعض ليلة أو بعض نهار ، وقد رأيت أن ملوك المسلمين ثارت بينهم الأحقاد وخدعهم الأعداء ، فأصبح بعضهم عدوّا لبعض ، ثم إنهم انصرفوا إلى اللهو والخمر والنساء ، وتركوا الأسبانيين يفتكون بهم أميراً أميرا ، حتى إن بعضهم اليوم يدفعون لهم إتاوات كل سنة ، و يتزلفون إليهم

صرّح الشرّ فلا يُستَقَلّْ
إن نهلتم جاءكم بعدُ عَلّْ
انهضوا فالدّاء رزء أجلّْ
واكسروا سيفاً عليكم يسلّْ

فقال المعتضد : وما شأنك أنت وهذا يا شيخ ؟ ! عجبى منكم أيها الفقهاء ! ! تريدون أن تدسّوا أنفسكم فى كل شىء . . . .

تركنا لكم دين الله تعملون به ما تشاءون ، فاتركوا لنا دنيانا .

— إن دين الله أثبت أركاناً وأقوى دعائم من أن يعمل المرء فيه ما يشاء، أما الدنيا فليست لك وحدك و إنما هى للمسلمين عامة . وقد قال سيّدك وسيدى أبو بكر الصديق : إذا رأيتم فىّ اعوجاجاً فقوّموه بسيوفكم . ونحن لا نقوّمك بسيوفنا ولكن بالنصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين .

— وهل أنا معوجّ ؟

— لقد زاد اعوجاجك وصلُب ، حتى يئسنا من تقويمك .

— خذوا هذا الشيخ عنى ، وإلا قتلته بسيفى .

— اقتلنى إن شئت ، فقد اشترى الله منى نفسى ومالى بالجنّة .

وحينئذ وثب عليه المعتضد وهو كالأسد الثائر ، فحز رأسه ، وقال لخدمه : احملوه إلى الجحيم .

فحمله الخدم ، والألم على الشيخ يكاد يخرجهم عن حدّ الطاعة لسيدهم . ثم جاء ابنه أبو القاسم الهوزنىّ ، والحزن الشديد يمتزج فى صدره بالغضب الشديد ، وقد جمدت عيناه ، وارتعدت شفتاه ، ورفع خدمه الشيخ على الأعناق وأبو القاسم خلفه يحدّث نفسه و يتمتم :

والله لآخـذنّ بثأرك يا أبى . . . والله لن أهدأ حتى أرى دولتهم قفراً يباباً . . . لن ينعموا طويلاً بعد اليوم . . . سأثير القلوب عليه ثم على ابنه من بعده حتى أثلّ عرشه . . . سأثير عليه القشتاليين وسأثير عليه ملوك الأندلس جميعاً ، وسأغرى به ملك المغرب ، وسأبعث عليه بجانب هؤلاء جيوشاً من مكرى وخديعتى لن يستطيع لها دفعاً . . . سيذهب ملكه وملك ابنه ولو ذهبت معه الأندلس جميعاً . . . كل الأندلس فداؤك يا أبى.

كان حزن أهل إشبيلية شديداً على الشيخ ، وقد كادت العامة تثور له لولا ما كان يخيفها من بطش المعتضد وجبروته .

وبعد مضىّ أشهر من الحادثة ، نرى المعتضد ذات مساء فى قصره ، ونسمع ضوضاء بين الجوارى والخدم ، ونرى طاهرة تدخل عليه مذعورة وهى ترتعد من الحزن وتقول : إن بثينة مريضة جداً .. . أخذها المرض فجاءة وهى تلعب بين أترابها .

فهبّ المعتضد كالمصعوق ، وقال : ماذا تقولين ؟ ! . . . بثينة !!... بثينة مريضة ؟ ! لعلها وعكة تزول ! ! أين الطبيب ؟؟ أين خلف الزهراوى ؟ ؟ أين هو ؟ ؟ وما هى إلاّ فترة قصيرة حتى جاء الزهراوى ، فبادره المعتضد قائلا : كيف وجدتها ؟ فقال

الطبيب فى صوت خافت مرتعد : إنها علّة الخُناق (الدفتريا) يا مولاى ، ولا نعرف لها علاجاً إلا تطهير الحلق ، وقد بذلت كل ما فى وسعى وفى وسع الطبّ ، لأخذ الأغشية البيض من حلقها ، غير أننى أخشى أن تكون أبعد من متناول يدى .

— سأراها معك . آه يا بثينتى . . . أنت دنياى أو ما بقى من دنياى . . . . أنت سلوتى بعد أن نفر منى الناس ونفرت منهم . . . . خذ أيها الطبيب ملكى واشفها . . . . لا تستطيع شفاء بنيّة صغيرة ؟ ! . . . . ماذا فى طبّك إذًا ؟ ؟ إنه دَجْل وخرافة . . . دجل وخرافة .

ولما وقعت عينه على ابنته ، رأى وجهها محتقناً بالدم فى زرقة وكُمدة ، ورآها تعالج الأنفاس فلا تستطيع ، ورأى المعتمد ابنه واقفاً بحذاء سريرها والدموع تتساقط من عينيه ، وحاول الطبيب أن يعطيها دواء للمضمضة فلم تستطع ، ثم جسّ يدها فرأى البرودة تدبّ فيها ، فهزّ رأسه كاليائس ، والمعتضد أمامه ينظر فى وجهه ليرى فيه بارقة من أمل ، فلما لم يجد أخذ يبكى كالطفل ، واجتذب الفتاة إلى صدره وهو يقول : سأداويك أنا بحبى يا بثينتى إذا عجز الطبّ . . . سأقوّى نبضك بنبضى ، وأبعث إليك حرارة

من جسمى ، سأهب لك جزءا من طول أنفاسى . عيشى يا ريحانتى فإن حياتى جزء من حياتك ، وإذا ذهب الكل ذهب الجزء معه . يأيها الغصن الرطيب من أين هبّت عليك هذه الزعزع النكباء ؟ ! ويا هذه الوردة الذابلة إن ربيع الحياة لا يزال أمامك ممتدّ المدى . . . ويأيتها اللؤلؤة ما كان لك أن تغيبى ثانية فى جوف ذلك البحر المجهول ، قبل أن تزيّنى الصدور وتحلّى النحور . بثينة . هل تسمعين أباك الحيران ؟ ؟ . . أجيبى .

وحينئذ غطى الطبيب وجهها ، ومسّ ذراع أبيها فى رفق وهو يقول : أجملَ الله عزاءك يا مولاى .

وهنا ارتفع الصراخ بالقصر ، ومشى المعتضد وهو ينتحب ويتوكأ على الطبيب وابنه المعتمد .

قضى المعتضد أيام العزاء فى ابنته وهو لا يكاد يفيق من الحزن ، وشعر فى أثناء ذلك بزكام ثقيل تصحبه حرارة محرقة ، فأحضر طبيبه فأشار عليه بالحجامة ، ولكن المعتضد رأى تأخير ذلك إلى غد يومه .

فلما جاء الغد ، زاد عليه الداء واشتد ، ودعا بابنه المعتمد ، فأخرج له من تحت وسادته رسالة يخبره فيها مرسلها بأن الثائرين

المدعوين بالمرابطين ، قد وصلت طلائعهم إلى رحبة مَرَّا كُش ، فلما قرأها المعتمد قال : هوّن عليك يا أبى وأنت فى هذه الحال ، إن بينهم و بين الأندلس اللجج والمهامه . فهز أبوه رأسه وقال وهو يتعثر فى كلماته : والله يابنىّ هذا الذى كنت أتوقعه وأخشاه ، ولئن طالت بك حياة . . . لترينّ هؤلاء الملثمين هنا . . .

ثم ضعف نفسه قليلا وأخذ يعالج شدة الموت ساعات ، حتى قضى يوم السبت لليلتين خلتا من جمادى الآخرة سنة إحدى وستين وأربعمائة .

وارتفع الضجيج ، وردّدت أرجاء القصر :

مات المعتضد . . . . مات المعتضد . . .

وكان أبو القاسم الهوزنىّ يمرّ تحت القصر ليلتقط أخبار المعتضد وصدره يغلى حقداً ، فلما سمع الضجيج أخذ يتمتم :

لقــد سرّنى أن النعىّ موكل
بطاغية قد حُمّ منــــه حِمَامُ
تجنّب صوبُ الغيث قبركَ جافيا
ومرّت عليــه المزن وهى جَهام

دسيسة

حزن المعتمد لموت أبيه وعزم أن يكفي كفايته ، وأن يرفع دولة بنى عبّاد إلى أوْج العظمة ، وأن يزيدها من شجاعته وحسن تدبيره و إحكام سياسته ، قوة على قوة . كانت نفسه تجيش بآمال ضخام وأحلام بعيدة ، وكانت تصوّر له أن ملكا لاينتظم بلاد الأندلس جميعها لايصح أن يسمى ملكا . شباب وذكاء وثروة... ما ذا تريد الدولة لتكون عظيمة سامقة غير هذه الثلاثة ؟ !

وهذه جميعاً موفورة تامة ، حتى لو خاط بعضها ببعض وصنع من المخلوط تمثال لكان المعتمد بن عباد .

كان أول ما صنعه المعتمد ، أن دعا خليله ابن عمار من منفاه وقلّده الوزارة ، ثم دعا بأبى القاسم الهوزنىّ ، ومنحه لقب المشير فى الدولة ، رغبة منه فى استرضائه لما فرط من المعتضد من قتل أبيه ظلماً وعسفاً . وعندما جلس على العرش ، أقبل عليه الناس من جميع أقطار الأندلس مهنئين مستبشرين متيامنين بهذا الأمير الشاب ، العربى الوسيم .

وجاء الشعراء للإنشاد ، و بينهم : أبو الوليد بن زيدون ،

والدّانى ، وابن وهبون ، وعلىّ الحصرى الكفيف ، والنحلى .
فشرع ابن زيدون ينشد قصيدة منها :

لك الخير إن الرزء كان غَيابة طلعتَ لنا فيها كما طلع البدر
فقرّت عيون كان أسخنها البكا وقرّت قلوب كان زلزلها الذعر

وصاح الحصرىّ يقول :

مات عبّاد ولكن بقى الفرع الكريم
فكأن الميت حى ، غير أن الضاد ميم

وأنشد الدانى قصيدة منها :

من بنى المنذرين — وهو انتساب
زاد فى فخرهم — بنو عباد
فتية لم تلد سواها المعالى
والمعالى قليلة الأولاد

والمعتمد فى هذا الجمع الحاشد يهتز للمديح ، ويرتاح للإطراء ، شأن العربى الكريم ؛ حتى إذا انفض الحفل دعا بصاحب خزائنه أحمد العامرى ، وأمر بمئات من الدنانير لكل شاعر ثم أمر بقدر واف من المال يوزع على كل مُعوِز محتاج بإشبيلية .

ثم خلا بنفسه ودعا إليه وزيره ابن عمار ومشيره الهوزنى ،

ليبحث معهما فى شئون الدولة ، فقال ابن عباد :

إن الأدارسة أعداء دولتنا ، لا يزالون يتربصون بنا الدوائر وينصبون لنا الشباك ، وأرى أن نكون أصحاب الضربة الأولى حتى نلقى فى قلوبهم الرعب ، فإما أن يلقوا القياد مستسلمين ، وإما أن يكونوا طعمة للنسور . فقال ابن عمار وهو يتطلع إلى أن يكون أميراً بإحدى مدن الأدارسة :

يا مولاى : أنت اليوم أعظم ملوك الأندلس قوة وبسطة ، وإن جيشاً إلى مرسية يحارب بسلاح رأيك ، ويقوده صنيعتك ابن عمار — كفيل أن يخترق أسوار المدينة فى ساعة من نهار .

وحينئذ اعترض الحديث الهوزنى وقال :

يا مولاى غفراً . إن لى غير هذا الرأى . إن الأندلسيين عامة ، وأهل إشبيلية خاصة سئموا الحروب ، وقد تيمنوا بطالعك ، وقرءوا فى وجهك آيات الخير والسلام ، ولم يمض على وفاة المعتضد إلا أيام قليلة ، فهب سنتين أو ثلاثاً يا مولاى لعظمة الملك وإعلاء مراسمه ، وللإغداق على الرعية وبعث روح السرور والبهجة فيهم . دعهم يفهموا أن ملكهم أريحى كريم ، يطرب للهو كما يطربون ، ويفرح بالملك كما يفرحون ، بعد أن قضوا سنوات كبتت فيها

نفوسهم ووجلت قلوبهم . دعهم يا مولاى يعرفوا أن المعتمد جمع صفات الحزم والقوة والذكاء ، التى كان يتحلى بها أبوه ، وأنه أضاف إليها اللين والسماح ، وانبساط النفس، والتمتع بلذائذ الحياة .

فقال ابن عمار : أما إذا دعوت إلى التمتع بلذائذ الحياة ، فأنا أول من يستجيب .

— لذائذ الحياة التى أُريد الأمير أن يتمتع بها ، غير ما تفهم منها أنت .

فقال المعتمد : عزمت على ألاّ أشرب الخمر . فقال ابن عمار : هذا حسن ، وهو يرفع من قدر الأمير فى نظر الرعيّة .

فقال الهوزنىّ : إن المعتضد كان يعاقر الخمر ، ولم يسقط ذلك من هيبته فى نظر الرعيّة ، على أننا سننشر بين الناس جميعاً أن مولاى كسر قوارير الخمر وأراق ما فى دنانها ، وإذا دعت الحاجة إلى كأس فى مجلس أنس مستتر ، فإن ذلك لا يعمل شيئاً .

ابسط كفّيك للناس ، واعف عن هفواتهم، وأدخل السرور على قلوبهم ، ودعهم يفرحوا بملكهم ويقولوا : إن أيامه كانت بهجة الأيام ، وعصره كان زينة العصور .

فقال ابن عمار : أنا أحب هذا الكلام ، وأنا أحب البهجة والسرور .

فقال المعتمد : إلى حين . فأسرع الهوزنيّ قائلا : نعم يا مولاى إلى حين .

ثم انفض المجلس ، وخرج ابن عمار مع الهوزنيّ، فقال ابن عمّار إليه هامساً :

— ماذا تقصد أبا القاسم بهذه النصائح الغالية ؟ ؟

— اسمع يا ابن عمار . أنا أعرف أنك رجل طموح ، وأن نفسك الكبيرة الوثابة لا ترضى لك أن تكون ذيلا للمعتمد ، وفيك دم الملوك ، وفيك عزائمهم . . . إن شبيهك المتنبي خاب فى المشرق فلم ينل ولاية أو ضيعة ، لأنه لم تكن فيه صفات الملوك . . . أتعاهدنى ؟

— على أى شىء أعاهدك ؟ ؟

— على ألاّ تقف فى طريقى ، ما دمت لا أقف فى طريقك . أنت تريد أن تكون ملكا بالأندلس ولستَ بأقل من ملوكه منزلة وقدراً ، وسأحتطب فى حبلك وأساعدك على ما تبغى ، على شريطة ألاّ تعترض لى رأيا ، أو تفندّ قولاً ، أو تفسد علىّ

خطة ، ولو أنى علمت أنك فعلت شيئا من ذلك ، لأشعلت الحرب ضروساً بينى و بينك . . . أتقبل ؟ ؟

— أقبل أبا القاسم .

ذهب الموزنىّ إلى منزله ، فرأى فى دهليزه فتاة متلفعة لا يظهر من جسمها شىء ، فلما رأته كشفت عن وجهها ، فإذا هى أرماندا جارية المعتمد الجديدة ، التى أهداها إليه الموزنىّ منذ أشهر ، وهى فى جمالها ورشاقتها ولطف حديثها وقوة سحرها ، فتنة تنتهب القلوب انتهابا . وقد كَلِفَ بها المعتمد كلفاً أنساه أو كاد ينسيه زوجته الرّميكيّة . نظرت أرماندا إلى الموزنىّ وقالت :

إنى فهمت غمزتك حينما لقيتنى اليوم بالقصر ، وعرفت أنك تريد مقابلتى على انفراد فى منزلك .

— ذكيّة وحق عيسى بن مريم .

— إنك لم تخترنى للمعتمد عبثاً ، ألست تريد منى أن أفتنه بسحرى عن كل شأن من شئون المملكة ، حتى يضعف ملكه وتهن قوّته ؟ ؟

— نعم اخترتك لإبادة هذه الدولة الطاغية اللاهية ، لتخلفها فى الملك إحدى الأسر العريقة من المسلمين بإشبيلية .

— أما من يخلفها ، فلسنا الآن بصدده ، لأننا اعتدنا فى قشتالة ، أن نعمل شيئاً واحداً فى وقت واحد .

فقال الموزنىّ متبرماً : هذا يكفى ، وقد دعوتك لأحثك على البدء بالعمل ، واحذرى أن يعرف مخلوق هـــذه الصّلة التى بيننا ، ثم احذرى أن يراك إنسان خارجة من القصر أو داخلة بيتى .

— إنى أخرج دائماً من باب القصر الخلفىّ ، ثم إنّى ماهرة فى أساليب الاختفاء

غادر المعتمد مجلس ابن عمار والموزنىّ ، وهو يخادع نفسه بالاقتناع بصحة رأيهما ، حتى إذا تنبــه فيه العقل وهمست الحـكمة ، أسكتتهما صيحات الغرائز والشهوات فأخذ يقول :

أباح لطرفى طيفُها الخدّ والنهدا
فعضّ به تفّاحة واجتنى ورداً
ولو قدرت زارت على حال يقظة
ولـكن حجاب البين ما بيننا مُدّا
هى الظبى جِيداً ، والغزالة مقــلة
وروض الرّبا عَرفا ، وغصن النقّا قدّا

ثم دخل عليه صاحب خزائنه يقول : يا مولاى . إن سهلون ابن إسحاق الجوهرىّ ، جاء يطلب خمسين ألف دينـار ، ثمن عقد من الجوهر اختارته سيدتى اعتماد ، وقد كتبتْ له بذلك صكاً .

— ادفع له ، ومره يدخل لأرى شيئاً من نفائسه .

فدخل سهلون يحمل خرجاً وفى كتفه ، وقال : يا مولاى . عندى فى هذا الخرج مالم يقتنه ملك ، ولم تتحلَّ به خزائن بنى العباس . ثم أخرج تمثالاً من البلّور لجمل له عينان من الياقوت ، وقد حلّى جسمه بنفائس الدرّ والماس . فأعجب به المعتمد ، وقال : بكم تبيع هذا يا ابن إسرائيل ؟ فقال : بعشرة آلاف دينار . فقال المعتمد : حسنٌ ، يا أحمد ، أعطه ما طلب .

وبينما هما فى الحديث ، إذا أبو العرب الصّقلىُّ الشاعر يستأذن فى المثول ، فأذن له، فأنشد قصيدة رائعة فى تهنئة المعتمد ، فتألق وجهه وأمر له بعشرين كيساً من الفضّة . فنظر أبو العرب إلى تمثال الجمل ، وأعجبه حسن صنعه ، ونفاسة جواهره . فقال :

لا يحمل هذه الصّلة إلاّ جمل (وأشار إلى التمثال) ، فأخذه المعتمد بيده وقال : خذه ، فإنه حمّال أثقال .

ثم انفضّ المجلس وخرج اليهوديّ يهز رأسه ويضرب بكفّ على كف ويقول : أنفق الأمير الجديد فى هذا اليوم خَراج دولة !!

هكذا هكذا تكون المعالى
طُرُق الجدّ غير طُرْق المزاح !!

هزيمة

مرت سنوات قليلة ، والمعتمد هانئ البال مستقيم الأمر ، يصرّف شئون الدولة ويقيم مراسم الملك فى عظمة وجلال ، حتى هابته الملوك وأحبته الرعية ، وأصبح اسمه يدوّى فى الأندلس مقرونا بالثناء محفوفا بالإكبار .

أجزل إلى الشعراء العطاء فانتجعوا ساحته من أقاصى الأندلس يتسابقون إلى مديحه وجوائزه ، ويذيعون أينما ساروا فضله ومكارمه ، وحاط الرعية بعطف اجتذب إليه النفوس وجمع على حبه القلوب ، وعظّم العلماء والفقهاء وأعلى مجالسهم . والعلماء فى الأندلس — وربما كانوا فى غيرها — عقدة الصلة بين الملك وشعبه ، غير أنه مع كل هذه الخلال التى أنست الرعية ويلات أبيه ، كان مولعا بمجالس الشراب ، مفتونا بالحسان ، كأن شيئاً

من ذلك جزء من مقوّمات حياته لا يكاد يعيش بدونه . وكان من عيوبه مع هذه الخلال ، انقياده لآراء بعض الموالسين المخادعين من بطانته .

قابل الهوزنى يوما ابن عمار بعد أن أصبحا صديقين ، وقال : لِمَ لا تطلب أبا بكر من الملك أن تذهب بجيش لأخذ مُرسية ، فقد طابت الثمرة وحان قِطافها ، فإذا أخذتها أصبحت ملكا عليها . فقال ابن عمار : سأخاطبه الليلة فى مجلس أنسه ، وأنا واثق من أنه سيجيب طلبى لأنه يتحرق شوقا إلى الغزو . فقال الهوزنى : هذا حسن ، وسأكون عضدك فى الوصول إلى أمنيتك .

ثم ذهب إلى داره ودعا عبده سهماً وقال : أتعرف الطريق إلى طليطلة ؟ فقال : نعم يا مولاى ، إنها على مسيرة ثلاثة أيام للمجدّ . فقال : خذ خير أفراسى ، واذهب مستخفيا إلى قصر المأمون بن ذى النون حاكمها ، وقلْ له : إن الرّيح تهبّ على مرسية . . . . لا تقل له غير هذا . . . . اركب الآن .

كان المعتمد بعد أيام من هذه الحادثة ، يطل من إحدى شرفات قصره ، واعتماد إلى يمينه ، وأرماندا إلى يساره ، فنظرت الرميكية إلى النساء وهنّ يملأن جرارهنّ من النهر ، ويمشين حافيات فى

الطين ، وقد بدت سوقهنّ إلى ما فوق الركب بيضاً نواصع ، فقالت : وددت يا حبيبي لو مشيت فى الطين حافية كهؤلاء .

فقالت أرماندا : ما أجمل وما أبهى ! ! إنما الجمال الحق فى الرجوع إلى الطبع ، فقال المعتمد : إن هذا أهون ما يكون ، فقالت أرماندا : ولكن الأميرة لا تمشى فى الطين ، إنما تمشى فى خليط من المسك والكافور ، فقالت اعتماد : نِعم ما رأيت يا فتاة . . . أسمعت يا مولاى ؟ فقال المعتمد: وأطعت .

ودعا بأحمد العامرى ، وأمره ألا يترك بإشبيلية مسكا أو كافوراً أو أى نوع من الطيب عند عطار ، وأن تجمع ورود إشبيلية ، ويستخرج ماؤها ، وأن تعمل فى الحديقة بركة واسعة ، طينها الطيب ، وماؤها ماء الورد ، لتمشى بها الأميرة حافية بين جواريها ، فأطاع أحمد العامرى مطرقا . وكانت أرماندا تنظر إلى اعتماد مبتسمة ، وتقول : آه ما أسعدك ! ! . . . إنه الحب . . . إنه الحب .

وبعد أيام عملت البركة .

وكان المعتمد جالساً فى قصره ، متكئاً على وسادته ، وجاريته جوهرة تهز المروحة فوق رأسه ، فى يوم اشتد حره ، وأرماندا

تغمزه فى يده غمزة خفيفة ، وهى تناوله الكأس ، وحبيبته وزوجه اعتماد ، تسلط عليه سحر عينيها الناعستين فتسقيه خمراً من صنف جديد ربما كان أحلى وألذ نشوة من الخمر ، والجوارى جائيات ذاهبات فى خدمته ، كأنهن اللؤلؤ المكنون ، والمغنّية تطلق صوتها فى أرجاء الحديقة فضيا لؤلؤيا فتكاد تردد صداه الأطيار ، وكانت تغنّى قول المعتمد :

رحلوا وأخفى وجده فأذاعه ماء الشئون مصرِّحا ومجمجما
سايرتهم والليل غُفْلٌ ثوبهُ حتى تراءى للنواظر مُعلماً
فوقفت ثَمَّ محيَّرا وتسلَّبت منى يد الإصباح تلك الأنجما

ثم صاح المعتمد : هلم أيها الفواتن إلى البركة ، واكشفن عن سوقكن . فوثبت اعتماد وجواريها إلى البركة حافيات جذلات يقهقهن ويغنين غناء القرويات ، ويُثرن طين المسك بأيديهن يميناً وشمالا ، وتزلج زجل إحداهن فى الطين فيزداد الضحك والصياح . وبينما هنّ كذلك ، أقبل الخادم سيف يقول : يا مولاى إن ابن عمار يطلب المقابلة ، فقال المعتمد دهشا : ابن عمار ؟ أ ولِمَ جاء من مرسية ؟ ! ثم أسرع إليه ، فدل مظهر ابن عمار على سوء خبره ؛ فقال الأمير : ماذا جرى أبا بكر ؟ ؟

— ذهب الجيش يا مولاى إلى مرسية ، ولكننا رأينا قوتنا دون قوة ابن ذى النون ، فجمعنا عشرة آلاف من الذهب نستأجر بها مدداً من ريموند فجاء بجيشه ، ولكن ريموند فر حينما رأى عظم جيش ابن ذى النون ، فيئسنا ، وهجم جيشنا وحده ، فهزم ولاذ جنودنا بالفرار . وقد عدت إليك يا مولاى واجفاً لما أصابنا من الفشل

فامتقع ابن عباد وقال : لا عليك أبا بكر ، سنعد له جيشاً يلتهمه و يلتهم طليطلة معه . أتظن أن جاسوساً أخبر ابن ذى النون بوثوبك على مرسية ؟

— لا يا مولاى ، فقد كان الأمر سراً مكتوماً

— لا تيأس أبا بكر ، فلن يفلت ابن ذى النون منا .

وحينما خرج ابن عمار رأى الهوزنى عند باب القصر ، فقال : هُزمنا يا أبا القاسم .

فقال : إن يمسسكم قَرح فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداولها بين الناس . اذهب إلى دارك أبا بكر . وكن كما تقول فى شعرك :

وقبل خلع نجاد السيف فاسع إلى
ذات الوشاح وخذ للحبّ بالثار
ضمّا ولثما يغنّى الحلى بينهما
كما تجاوبُ أطيار بأسحار

مصاهدة

تمرّ ستّ سنوات يموت فى أثنائها المأمون بن ذى النون ، فيتجهز المعتمد للإغارة على قرطبة ، وها نحن أولاء نراه يقطع الطريق إليها عدواً ، فى جيش كثير العدد ، وحوله قواده ومشيروه وفيهم ابن عمار والهوزنىّ ، ثم يدركهم الليل ، فينزل المعتمد وحاشيته فى خيمة وهو حزين كاسف البال .

ذكر اغتصاب جيش ابن ذى النون لقرطبة درّة ملكه . . وذكر والألم يحزّ فى نفسه هجوم حُريز بن عكاشة بثلّة من رجاله على قصر ابنه الظافر بقرطبة فى جنح الليل ، ثم خروج ابنه إليهم فى لبسة المتفضل يقاتل دون حوزة القصر فريداً بعد أن فرّ عسكره . ثم ذكر كيف أن حريزا قتله وتركه ملقى بالعراء ، حتى جاء أحد المارّة فى الغلس فرآه ، فغطاه بثوبه . . . فأخذ المعتمد يردّد :

ولم أدر من ألقى عليـــه رداءه

على أنه قد سُلَّ عن ماجد محض

ثم يقبل الجيش على قرطبة وقد خلت من جيوش القادر بن ذى النون ، فينزل بها جيش إشبيلية ، ويفر حريز بن عكاشة فى فصيلة من جنده ، فيتعقبه المعتمد بنفسه حتى إذا ظفر به أغمد سيفه فى صدره وصاح : نم هنيئاً ياولدى فقد أخذ أبوك بثأرك !

يدخل المعتمد بحاشيته قصر قرطبة ، ويقبل عليه الناس والشعراء يهنئونه ويبتهج أهل قرطبة جميعاً بالمعتمد ، بعد أن طال عليهم حكم بنى ذى النون ، لأن القرطبيين قوم ذوو ملل ، لا يصبرون على حكم وال طويلا . وحينما وقف النحلىّ الشاعر ، قال له المعتمد مازحا : يانحلىّ ، أينا ينشد أولا ؟

فقال النحلىّ : الملك الشــاعر يا مولاى أولى بالتقدم . فأنشد المعتمد :

مَنْ للملوك بشأو الأصْيَد البطلِ

هيهات جاءتكم مهدية الدّولِ

خطبتُ قرطبةَ الحسناء إذ مَنَعَتْ

من جاء يخطبها — بالبيض والأسل

وكم غدت عاطلا حتى عرضتُ لها
فأصبحت فى سرىّ الحلى والحلل
فراقبوا عن قريب لا أبا لكم
هجوم ليث بدرع البأس مشتمل

فالتفت الشعراء بعضهم إلى بعض، وقال النحلىّ — وكان أعرقهم فى الملق وطرق الاستجداء — : والله لن يستطيع شاعر أن يقول شعراً بعد هذا، أكسدت علينا بضاعتنا يا مولاى. وتشبّث الشعراء برأى النحلىّ، بعد أن وثق كل منهم من الجائزة، ففرّق عليهم المعتمد الجوائز فى إغداق وإسراف، وأمر أن تنصب الموائد وتمدّ الأسمطة لأهل قرطبة ثلاثة أيام.

ثم اجتمع المعتمد بابن عمّار والهوزنىّ وقال: إن دولة بنى ذى النون ضعفت بموت المأمون والفرصة اليوم سانحة للإغارة على بلاده وضمّها إلى ملكنا. فقال الهوزنىّ: نعم يا مولاى. إن القادر بن المأمون حدث غرّ، ليس فيه شىء من صفات الملوك، غير أن الأذفونش (الفونسو) يحالفه ويناصره، ويذود عنه، حتى ليقال: إن المأمون قبل موته، أوصى الأذفونش بحماية ابنه. فقال المعتمد: الأذفونش صديقنا، ونحن نمنحه مالا

وهدايا فى كل عام . فقال ابن عمار : الأذفونش تاجر ، يتجر بقوّته وجنوده وهو يمنحهما من يعطيه أغلى ثمن . وقال الهوزنىّ : ثم إن مولاى وقد أصبح أقوى ملك بالأندلس ، يحسن به ألاّ يقتصر على فتح بلاد بنى ذى النون ، بل أرى أن تتوجه همة مولاى إلى بنى الأفطس ببطليوس ، و بنى صمادح بالمرّية . فقال ابن عمار : هذه الأمانىّ لا تتحقق إلا بوسيلتين : كثرة عدد الجيوش المقاتلة ، وعدد مقاتلتنا لا يكفى ؛ ثم باتقاء شر الأذفونش واجتذابه إلى جانبنا . فقال الهوزنىّ : هذا سهل هيّن . . . . نعقد معه معاهدة على أن يمدّنا بجنود من قشتالة وعلى ألاّ يساعد علينا عدوّا ، ولو كان ابن صديقه المأمون . فقال ابن عمار : إن الأذفونش سيغالى فى الثمن . فقال المعتمد : ليغال ما يشاء . . . . لا بدّ أن أملك الأندلس كلها . فقال الهوزنىّ : هذا يوم يا مولاى سيكون أغرّ محجلا فى التاريخ ، وأودّ أن أعيش لأسمع ما يقول شعراؤنا فيه ، وأنت جالس على عرشك تحكم الشرق والغرب . ثم قال المعتمد : قم أبا بكر واذهب إلى الأذفونش ، واستعمل معه أساليب مكرك ومِحالك ، ولا ترجع

إلا والمعاهدة فى يدك . فقال ابن عمّار : على أن تكون بلنسية فى يدى الأخرى .

ورحل المعتمد مع الهوزنىّ إلى إشبيلية ، بعد أن ترك ابنه المأمون أميراً على قرطبة ، وبعد أن ودّع ابن عمار ورجا له التوفيق فى سفارته . جدّ ابن عمّار فى السير إلى مدينة قورية بعد أن علم أن الفونسو مقيم بها ، حتى إذا وصل إلى القصر ، رأى ملك الأسبان فى بهوه الملكىّ ، ورأى زوجته أجنيس بنت دوق جويانة ، جالسة بجانبه ، وكانت رائعة الطلعة فائقة الجمال ، وكان العرب يلقبون زوجة ملك الأسبان بالقمجيطة ، فسلّم عليهما ابن عمار ، ثم أخذ مجلسه بعد أن أحسن الفونسو تحيته وقال :

— أى ريح سعيدة بعثت بك إلينا ؟ !

— دعنى أولا يا سيدى أملأ عينىّ من جمال القمجيطة ، فقد بهرنى حسنها ، وأذهل عقلى ، وأضاع تفكيرى . . . هكذا تكون زوجات عظماء الملوك ! !

فقالت أجنيس : ماذا يقول العربىّ ؟ ؟

— يقول : إنه فتن بحسنك وسُحر بجمالك ، حتى فقد عقله .

فضحكت فى سرور وإدلال وقالت : قل له : أليس عند

ابن عبّاد من هنّ في جمالي ؟ فلما نقل الفونسو سؤالها إليه قال :

— في قصر ابن عباد أمثالها ؟ ! . . . ولا في جنة الخلد .

ثم التفت إلى صورة للعذراء معلقة بالحائط ، وقال :

— في هذه الصورة الجميلة شبه قليل منها .

سرّ الفونسو لإطراء زوجته وترجم لها ما قاله ابن عمار ، فقالت لزوجها : سله أيّ شيء في وجهي كان أكثر تأثيراً في نفسه ، فترجم له الفونسو فقال :

لقد أوقعتني هذه الدرة الأسبانية المتلألئة في حيرة أخرى . . . عيناها أجمل ما في وجهها . . . إنهما مغناطيستان تجتذبان العقول . . . لا . بل حاجباها ، وهما قوسان تصيدان القلوب . . . لا . لا . . . بل خداها . . . ثم ثغرها الفاتن وهو عقيق يغطي عقدين من لآلئ الجنّة ، نظمتهما يد الرحمن . . . لا يا سيدي ، قل لها : إن كل شيء فيها حسن ، وإنها فتنة للناظرين .

فلما بلّغها الفونسو ما قاله ، زادت زهوا ودلالا ، وقالت : سله أهو شاعر ؟ ؟

فقال ابن عمار : قل لها يا سيدي : إن محاسنها لا تحتاج إلى شعر شاعر ، إنها وحدها قصيدة نظمها الزمان ، لتكون آية الزمان .

اهتزت أجنيس طرباً وقالت : يا ألفونسو ، هذا عربى لطيف عذب الكلام ، فبحقى عليك إلا أحسنت مجاملته وسهلت له حاجته .

ثم تركت المجلس . فقال الفونسو : نعود إلى سؤالك عن سبب زيارتنا .

فقال : جئت يا سيدى من قِبل المعتمد ، وهو يرجو أن يكون لك صديقاً ثابت الود ، دائم الإخلاص . فما قولك ؟ ؟

— هذا حسن ، لولا أن مطامع ابن عباد دائماً تتعارض مع مطامعى ، وتقف فى طريقها ، ثم إنى لا أحب فيه تلك النزعة الجشعة ، التى تدفعه إلى الرغبة فى امتلاك الأندلس واغتصاب صغار الولاة بلادهم .

— الأذفونش ملك عظيم ، فلم لا يحب أن يكون حليفاً وصديقاً لملك عظيم ؟

— نحن الملوك لا نحالف إلاّ من نخاف شرّه . وأنا لا أخاف ابن عبّاد .

— إنك تشكو منه الآن ، لأن مطامعه تصطدم بمطامعك ، فلم لا تحالفه إذاً حتى يسير كلّ منكما فى طريقه من غير

اصطدام . . . يترك لك ما تريد ، وتترك له ما يريد .

— لا يا ابن عمار ، إن الذى يترك الأسد طليقاً يغتاله الأسد .

— إننا سنفرض يا سيدى أسدين قويين ، وهما فوق ذلك صديقان .

— لا يا عربىّ . إنك ربّما تعرف ما فى نفسى ، وتحاول أن تخدعنى .

— هلمّ إلى المصارحة إذاً . أنت تخشى أنك إذا حالفته قوّيت ملكا مسلماً ، وأنتم لا تريدون أن تعيدوا فى الجزيرة أيام عبد الرحمن الناصر ، أو أيام المنصور بن أبى عامر

— ليس كذلك تماماً .

— هو كذلك تماماً . . . دعنى أخبرك أن تلك الأيام لن تعود ، وأنك إذا حالفت المعتمد كنت الرابح من غير أن يعود عليك خطر .

— أنا حليف القادر بن المأمون .

— ولكننا سندفع ثمناً أغلى .

ثم انتقلا إلى المساومة والمماكسة ، واتفقا على معاهدة من نصوصها : أن يتعهد ملك قشتالة بمعاونة المعتمد بالجند فى حروبه

مع جميع أعدائه المسلمين ؛ وأن يتعهد المعتمد بمضاعفة الإتاوة التي يؤديها إلى ملك قشتالة في كل سنة ؛ وألاّ يعترض خطته في افتتاح طليطلة . وهي معاهدة مشئومة ، ضحّى فيها المعتمد بأسبانيا كلها ، لكي يبسط سيادته على بضع إمارات .

عاد ابن عمّار إلى إشبيلية ، واطلع المعتمد على المعاهدة ، فسرّ بها ، وبدأ إنفاذها بإرسال ابن عمار على جيش لأخذ مرسية وبلنسية ، على أن يكون أميراً لبلنسية .

وبعد سبع سنوات من هذه المعاهدة ، سقطت طليطلة قاعدة القوط القديمة ومعقل النصرانية في يد الفونسو ، بعد أن حكمها المسلمون اثنين وسبعين وثلاثمائة عام ، فشمل الحزن عليها جميع بلاد الإسلام ، وذعر ملوك الولايات وأحسّوا بالخطر الداهم ، وبغى الفونسو وتكبّر ، ولقب نفسه بالإمبراطور حامي الملّتين ، ثم أقسم ألاّ يبقى أحدا من ملوك الأندلس فوق عرشه ، إلاّ إذا خضع لسلطانه ، وعدّ نفسه من عمّاله . ووصل الخبر إلى إشبيلية في ليلة سوداء ، فهاج الشعب وهدد بثورة جامحة ، واجتمع الناس في الخانات وعند أفواه الطرق ، يتحدثون في حزن وسخط على ملوكهم الذين أدّى بهم تخاذلهم وإسرافهم ، والانهماك في

شهواتهم إلى هذه الفاجعة ، التى تهـدّد بزوال ملك العرب من الجزيرة .

وجلس المعتمد فى قصره حزيناً ، تتناهبه الأفكار ، وتتقاذفه الأوهام . ودخل عليه الهوزنىّ ، فسأل المعتمدُ فى ذهول وشتات فكر : كيف الحال ؟؟ فقال الهوزنىّ : الحال حسنة يا مولاى ، لولا فضول أهل إشبيلية ، فإن المصيبة فيهم أنهم يزجون أنفسهم فيما لا شأن لهم به من سياسة الملك وشئون الدولة .

لقد مررت فى الطريق وأنا قادم ، بسوق القصّابين ، وكان أحد الجنود يشترى لحماً ، فابتدره القصّاب قائلا : حرام أن تأكلوا وتشربوا أيها الجنود المترفون .

وكاد الشرّ يتفاقم ، لولا تدخل الناس .

— إن استيلاء الأذفونش على طليطلة له ما بعده .

— وقد بلغنى يا مولاى أنه فتك بأهل المدينة ، وسامهم كل أصناف العذاب .. تعساً لهذه المعاهدة الظالمة ، فإنها الجذوة التى طارت منها كل هذه الشرور . فأطرق المعتمد وقال : حقاً قلت يا أبا القاسم ، لقد فارق التوفيق ابن عمار عند عقدها .

— إن ابن عمار يا مولاى رجل لا يوثق به ، وهو أول من

يبيع نفسه وذمته لمن يلوّح له بالذهب النضار ، فقد سمعت أن الأذفونش أهدى إليه خاتمين من نفيس الجواهر ، وأنه خدعه بصنوف من الإطراء ، حتى لقد دعاه أذكى رجل بالأندلس ، وأنه خُلق ملكا ، وأظهر له أسفه أنه لم يكن فى مكان ابن عباد

— وظن الخائن المفلوك ذلك صحيحاً ؟ !

— إنه أول من يُخدع ، على الرغم مما يظهر من الحصافة والذكاء ، ثم لقد بلغنى أن زوجة الأذفونش — وهى من يعلم مولاى قوة سحر جمالها — فتنته وأطمعته ، حتى وقع فى الشرك فوقع المعاهدة .

— ويل للأبله المخدوع ! !

— إنه رجل كبير الآمال . . فقد وصل إلى علمى أنه أظهر العصيان ببلنسية ، بعد النعم التى واليتها عليه ، ثم إن كارثة السكوارث ، أنه أرسل شعراً فى هجاء مولاى وزوجه اعتماد ، يردده أهل الأندلس جميعها ، يقول فيه :

تخيَّرتَها من بنات الهجان رُمَيْكيّةً لا تساوى عقالا
فجاءت بكل قصير العِذار لئيم النّجاريْن عمّا وخالا

فالتهب المعتمد غضباً ، وصاح بعبد الجليل بن وهبون ،

وأمره أن يكتب إلى أحمد بن عبد العزيز ، وزيره ببلنسية : أن يرسل إليه ابن عمار مصفوداً . وبعد أيام وصل ابن عمار ، ولم يبق وسيلة من وسائل الاستعطاف إلا بذلها ، ولكن الغضب لم يترك فى نفس المعتمد مكاناً لرحمة ، فوثب عليه وقتله بيده ، وخرج الهوزنىّ وهو يقول فى نفسه : هذه بداية الخاتمة . ومرّ ابن وهبون بجثة ابن عمار فقال :

عجباً لمن أرثيه ملء مدامعى وأقول : لا شَلَّت يمين القاتل !

ثورة

كان القاضى عبد الله بن أدهم من أشدّ الساخطين على المعتمد ، لتهاونه بشئون الدين والملك معاً ، ولانغماسه فى اللّهو ، وتحالفه مع الأسبان .

وكان عبد الله شيخاً جليل القدر ، وقور السّمت ، له نفوذ روحىّ قوىّ التأثير فى العامّة ، فكان يوجههم بإشارة من يده كيف شاء ، ومتى شاء . وقد سمع من القادمين من برّ العدوة ما عليه ابن تاشفين ، ملك مرّاكش ، من الزهد والصراحة فى الحق ، والتمسُّك بالدين ، والتأدُّب بآداب الصحابة ، والميل إلى الغزو

فى سبيل الله ، فكان يود لو أن زمام الأندلس أسلم إلى يده بعد أن كبا بها الزمان ، واصطلحت عليها النوائب ، ليملأها عدلاً بعد أن ملئت جوراً ، وليعيد إليها ما كان لها من العزّ الشامخ والملك العظيم .

كان عبد الله جالسا فى داره مطرقاً مفكراً ، وإذا أبو القاسم الهوزنىّ يطرق بابه ، ويسلم فى أدب ويجلس ، فيلتفت إليه ابن أدهم ويقول : كيف حال المعتمد اليوم ؟ ألا يزال سادراً فى لذاته ، أم أيقظه قرع الحوادث ؟ ؟

— لا يزال سادراً فى لذاته ، وهو الآن أشبه بالقنديل فى آخر الليل ، تخفق ذبالته حتى إذا لم تجد زيتاً انطفأت .

— ليته كان ينطفئْ وحده ! إنه ليس قنديلا أبا القاسم . إنه راعٍ ترك شياهه للسباع . . . إن هذه الأمة لا تصلح إلا بابن خطاب جديد .

— وأين نجد عمر بن الخطاب الآن ؟ ؟

— هو على مرمى سهم منك . . . . هو فى برّ العدوة . . . . هو فى مرّاكش . . . هو يوسف بن تاشفين .

— فهمت . هذا حسن ، وهو خير من يعيد إلى الأندلس مجدها .

— ولكن كيف الوصول إليه ؟؟ . . إن وفداً من رجال الأندلس لا يكفى لدعوته ، لأنه قد يرتاب فى أن البلد ممهد لدخوله ، فيخشى أن يقع بين شقىّ رحا ، وأن تطبق عليه جيوش المسلمين وجيوش الأسبان .

— دع هذا الأمر لى يا سيدى ، ويكفيك أنك أوحيت بالفكرة . . . إنى سأحتال حتى يدعوه المعتمد نفسه .

ثم ينطلق إلى القصر فيلتقى بأحمد العامرىّ صاحب الخزائن ، فيقول له : عم صباحا أبا محمد ، من مثلك اليوم يمشى فى إعجاب وزهو ، كشية بنت المستكفى التى تقول :

أنا والله أصلح للمعالى
وأمشى مشيتى وأتيه تيها

ولا عجب ، فإنك حارس خزائن الملك ، تعطى من تشاء وتمنع من تشاء .

— لا تمزح أبا القاسم فإن الوقت وقت جد ، إن النفقات الكثيرة تكاد تلتهم ما فى الخزائن : جوائز للشعراء لا تنتهى عند

حد فى كل يوم ، وجواهر وحلى وملابس للجوارى ، ولأرماندا ، ولسيدتى الرُّميكية — تزيد أثمانها على ما يتوهمه العقل ، ثم نفقات قصر الملك ، ثم ما ينفق على القصور الأخرى : وهى الزهراء ، والمبارك ، والوحيد ، والزاهى ، والمؤيد . ثم ما يدفع من الإتاوات للأذفونش . ماذا يبقى يا أبا القاسم ؟ ؟

— يبقى ما يدفع للجيش .

— أنت لا تزال تمزح . عم صباحاً .

وتركه الهوزنىّ ، فرأى المعتمد جالساً بين حاشيته ، ووجهه مربدّ ، وهو يتكلف الكلام والابتسام ، حتى إذا أخذ مجلسه ، جاء سيف الخادم وقال بصوت مرتعد : إنّ ابن شاليب اليهودىّ قدم يا مولاى ، وقد ترك بربض إشبيلية نحو ثلاثمائة جندى ، قدموا معه . فالتفت المعتمد إلى من حوله وقال . ليدخل .

ودخل ابن شاليب ، وكان رجلا فى الستّين ، أشيب اللّحية ، كبير الأنف ، يسيل ماء عينيه لرمد ملازم ، فهو لا يفتأ يمسح دموعهما بيده بحركة عصبيّة ؛ وكان وسخ الوجه واليدين ، له خُصلتان طويلتان تتدليان على عارضيه ، يلبس فوق صِداره وسراويله جبّة طويلة ممزّقة الذيل وسختِه .

سلّم ابن شاليب وقال : إن مولاى الأذفونش يصدر إليكم أمرين : الأول : أن تقيم زوجه كونستانس بمدينة الزهراء حتى تلد ، وأن تلد بالجانب الغربى من جامع قرطبة ، وهو مكان الكنيسة القديمة ؛ والثانى أن تضاعف الإتاوة هذا العام .

فقال المعتمد : اسمع يا رجل . نحن لا نتلقى من أحد أمراً ، وولادة القمجيطة بجامع قرطبة أبعد من المحال ، وهو طلب نرده فى وجه مولاك بأنفة وازدراء ؛ وأما المال نخذوه إن كان ذلك يسدُّ جشع الأذفونش . ثم أمر أحمد العامرىّ بإعطائه الإتاوة .

و بعد ساعة عاد ابن شاليب وهو يصيح فى غضب : لا آخذ هذه الدنانير . . . . إنها زائفة . . . . إنها مغشوشة . . إن الأذفونش سئم هذه الألاعيب ، و إننا فى العام القابل لن نأخذ دنانير بل نأخذ مدناً وحصوناً .

فقال الموزنىُّ : أطبق فمك يا فاجر ، إنك أمام الأمير .

فقال ابن شاليب : إن أراد الأمير أن يحترم نفسه فلينقدنى الدنانير صحيحة غير زائفة . وقد كان الغضب قد أطبق على المعتمد فلم يستطع صبراً ، وكانت أمامه دواة ضخمة ، فقبض على رقبة ابن شاليب ، ودقّ رأسه بالدّواة حتى تناثر مخّه ، ثم أمر سيفاً

خادمه — وعيناه تكادان تثبان من محجريهما — أن يرسل جنوداً فى جنح الّليل على فرسان الأذفونش ليقتلوهم .

طار خبر مقتل اليهودىّ فى إشبيلية ، وتنقّل من لسان إلى لسان ، وكان الناس قد سئموا حكم المعتمد ، ولكنهم كانوا يكتمون غيظاً تغلى فى نفوسهم مراجله . وأسرع من نجا من فرسان الأذفونش إليه ، يقصّون عليه ما كان من المعتمد ويزيدون ويهولون ، فأذهله وقع الخبر ، وأقسم برأس أبيه أن يرسل عليه جيوشاً لا قِبل له بها ، وألاّ يقلّ عددها عن شعر رأسه ، وقد أنجز وعيده فأرسل جيشاً لُهاماً لا يبلغ الطرف مدى آخره ، كان يقوده بنفسه ، حتى وصل إلى شاطئ النهر الكبير ، فعسكر قبالة قصر المعتمد بإشبيلية وربض متنمراً كالليث الغاضب .

فلما وقعت الواقعة ، ذهب الهوزنى إلى دار عبد الله بن أدهم وقال له : لقد نضجت الثمرة اليوم يا سيدى ، وأصبح قدوم ابن تاشفين قريباً ، بعد أن نزل الأذفونش بطريانة .

— كيف ذلك ؟

— لقد أرسلت فى هـذا الصباح حمّاداً المربى ليخطب فى العامّة ، ويثير كوامن غيظهم على المعتمد ، وهو شابٌ ذرب

اللسان ، يعرف كيف يلهب النفوس ، و يلعب بالعقول .

— ماذا نفيد من هذه الثورة ؟ إنها قد تقوّى الأذفونش .

— إن الأذفونش ستطول إقامته بطريانة قبل أن يهجم ، لأنه سينتظر جيشاً آخر قادماً من طليطلة لم يغادرها بعد ، ثم إن هذه الثورة ستدفع المعتمد إلى الاستعانة بابن تاشفين على الرغم منه ، لأنه سيصبح بغيضاً إلى العامة فلا يتقدمون لنصرته .

وما كاد يفرُغ الهوزنىّ من كلامه ، حتى دخل حماد المرينى وآثار الإجهاد والتعب بادية عليه ، فقال : إن إشبيلية الآن ثائرة كلها ، يستوى فيها الرجل والمرأة ، والطفل والشيخ .

فقال الهوزنىّ : كيف ذلك ؟ فقال المرينى : لقد خطبت فى الميدان الكبير وكان الجمع حاشداً يموج كالبحر الزاخر ، وما فرغت من خطبتى حتى وقف الناس يخطبون ، وصار كل واحد منهم حمّاداً المرينى .

— ماذا قلت لهم ؟

— عدّدت مثالب ابن عباد : فذكرت إسرافه فى اللهو والمجون ، وجنونه بحبّ النساء والجوارى الأسبانيات ، وفتنته بأرماندا و بزوجه الرّميكية التى كانت نكبة على الأندلس جميعها ،

ثم تبديده أموال الدولة على المتعطلين من الشعراء والمضحكين والمجّان، ومعاقرته الخمر حتى لا يكاد يفيق من سكر ، وتبذيره فى بناء القصور ، ثم تحقيره الفقهاء والعلماء ، وإهمال شهود الْجُمَع ومعاهدته مع الأذفونش التى جرّت الخراب على البلاد ، ثم ترك الجيش حتى فقد قوته ، والأسطول حتى تعطّن فى الماء ، ثم طرح شئون الدولة وراء ظهره وترك زمامها فى يد ابنه الغرّ الجاهل الذى سمّاه بالرشيد .

— مرحى مرحى أبا هاشم ! !

ثم ودّعهما الهوزنىّ وانصرف إلى القصر ، فرأى من فيه يموج بعضهم فى بعض ، ورأى المعتمد جالساً مع ابنه الرشيد ، ومعهما أبو بكر بن زيدون، فقال له المعتمد : اجلس أبا القاسم . . . إنما تعرف الرّجال فى الشدّة . . . هل لك فى هذه النازلة رأى ؟

فقال الهوزنىّ : يا مولاى . رأيى أننا نحتاج إلى حليف قوىّ فى هذه الشدّة .

وقال ابن زيدون : يجب أن نكتب إلى جميع ملوك الطوائف ليشاركونا بجيوشهم فى دفع هذا البلاء فإن خطره يشملنا ويشملهم. عندئذ قال الهوزنىّ : إن ملوك الطوائف جميعاً أضعف من

التمّام ، وهم يخافون الأذفونش ويتّقون غضبه ، حتى لقد بلغنى أنهم أرسلوا إليه التهنئات والهدايا حينما ملكت جيوشه طليطلة . . . . إن ملوك الطوائف لا يصلحون .

فقال المعتمد : من يصلح إذاً ؟ فقال الموزنىّ : سمعت أن يوسف بن تاشفين رجل ليس له أطماع البتّة ، وأنه مجنون بشىء يسمّيه الغزو فى سبيل الله، فإذا خدعناه بهذه الفكرة ، جاء بجيش من البربر ، فتمتع بالغزو الذى يحبه وتتوق إليه نفسه ، ثم عاد من حيث أتى ، وأعتقد أن ملوك الطوائف إذا وثقوا من انتصاره على الأذفونش — وهو أمر محقّق — تدفقوا على مولاى ملحّين فى أن تشترك جيوشهم فى الجهاد .

ثم إنى واثق أن العامة إذا عرفوا أن مولاى يبذل أقصى جهد فى استئصال شأفة الأذفونش — تقدّموا لنصرته ملبّين .

فظهر الاقتناع على وجه المعتمد ، وحينئذ خرج الرشيد من من صمته وقال :

— يا مولاى : إن هؤلاء البربر قوم جياع ، جاءوا من الصحراء وفيهم الجشع والوحشية ، وأخشى أنهم إذا نزلوا بلادنا ، ورأوا ما فيها من أسباب الحضارة والنعيم ، صعب عليهم مبارحتها فنكون

كمن يفرّ من الذئب ، فيقع بين أنياب الأسد .

وأرى أن نصانع الأذفونش وأن نبذل له من الأموال فوق ما يتخيّل ، حتى يعدل عن عزمه ، ويذهب إلى طليطلة ، ثم نتّخذ من هذه الحادثة عبرة ، فنفرغ لتقوية جيوشنا ، وننفق كل درهم من أموال الدولة فيما يقوى أركانها ، ويصدّ عنها أعداءها.

فغضب المعتمد وقال : والله لن أصانع هذا الأذفونش بعد أن أهان أرضي، وأهانني رجاله الأدنياء ، ووالله لن يقول قائل بعدى : إن ابن عبّاد أضاع ملك الأندلس . . . ولأن أرعى الجمال عند ابن تاشفين خير من أن أرعى الخنازير عند الأذفونش .

ثم إني من أمرى على حالين : حال شكّ ، وحال يقين . ولا بدّ لى من إحداهما .... لأنني إذا استندت إلى ابن تاشفين ، أو إلى الأذفونش ، فمن الجائز أن يفي لى كل منهما بعهده ، ومن الجائز ألاّ يفي . . . . فهذه حالة شكّ .

ولكنى إذا استندت إلى ابن تاشفين ، أرضيت الله ، و إذا استندت إلى الأذفونش ، أسخطت الله ، فهذه حالة يقين .

ولأن يغدر بى ابن تاشفين مع رضاء الله ، خير من أن يفي لى الأذفونش مع سخطه . أتعلم أبا القاسم أن الطاغية أرسل إلىّ

بالأمس رسالة كلها تهكمّ وسخرية وصلف : أرسل يقول : إنه طال مُقامه بشاطئ النهر ، فاشتد عليه الحرّ وكثر الذباب ، وطلب الصفيق مراوح تطرد الذباب عنه وعن جنده ؟ !

فقال الهوزنىّ : يا للداهية ! ! بم أجبته يا مولاى ؟ ؟

— أجبته بأنى سأرسل إليه مراوح من نوع جديد . . : مراوح من الدرق اللمْطيّة تروّح منه ، ولا تروّح عليه .

ثم هبّ واقفاً وقال : أنا ذاهب الآن إلى ابن تاشفين . يا ابن زيدون . . . . اكتب إلى ملوك الولايات ليكونوا على استعداد .

ركب المعتمد سفينته ، وكان لا يصحبه إلّا خادمه سيف ، حتى وصل إلى مرّاكش فطرقها ليلاً ، وذهب إلى قصر أمير المسلمين ابن تاشفين وطلب مقابلته ، فذعر ابن تاشفين وخاف أن يكون قادماً بجيشه . وقد بسط إليه المعتمد — ودموعه تتناثر فوق خديه — حال الأندلس ، وما أصاب الإسلام ، وأن الأمر يدعو إلى الجهاد وبذل النفوس فى سبيل الله ، وأن الله الذى نصر أمير المسلمين فى جميع غزواته ، قد أعدّ له فى الأندلس النصر المبين ، واختاره لحفظ دينه ، وإعلاء كلمته .

وافق ابن تاشفين على إرسال جيش للأندلس . وعاد المعتمد إلى إشبيلية فرحاً مسروراً ، فاستبشر الناس وهنّأ بعضهم بعضاً ، وهمس الموزنيّ فى أذن عبد الله بن أدهم : ألم أنبئك أنى سأعمل على أن يدعو المعتمد ابن تاشفين لدخول الأندلس ؟ ؟

— إن لك سحراً لا تنفع فيه الرُّقَى ! ! ولكن ابن تاشفين وعد أن يعود إلى بلاده بعد أن يقهر الأذفونش .

— إن وعود السياسة كوعود الحسان . . . قاتل الله المتنبى حين يقول :

ومن يجعل الضّرغام بازاً لصيده
تصيّده الضّرغام فيما تصيّدا

الزلّاقة

رفرف على شاطئ الأندلس عند الجزيرة الخضراء ، مائة شراع يعبث بها النسيم ، وتتخايل فوقها الرايات .

وكانت السفن تعجّ بالمجاهدين من البربر ، وعرب زناتة ، وتزخر بالخيل والجمال ، ومعدّات القتال : فكان الصهيل فيها يختلط بالهدير ، وأصوات المقاتلين تمتزج بصليل السيوف

وقعقعة الرماح. والرّكاب فوقها فى حركة دائبة، وضوضاء صاخبة.

وأبناء الصحراء من البربر يطلّون على شاطئ الأندلس فى ذهول وإعجاب ، وقد طرّزت حواشيه الرياض والمروج ، وانتثرت فيه الكروم وأشجار التّوت والزيتون والتّين .

لقد كانوا فى السعير فأقبلوا إلى النعيم ، وكانوا فى الجدب المحرق ، فأشرفوا على الخصب والعيش الرخيم .

وحينئذ التفت سَيْر بن أبى بكر — أكبر قواد ابن تاشفين — إلى القائد داود بن عائشة قائلا : يا داود . إن هذه البلاد هى الجنة التى كنتم توعدون ، وأعجب من فاتح يضع فيها قدمه ثم يستطيع أن يفارقها .

— إن الجنة تحف دائماً بالمكاره ، ولا تخلو من وسوسة الشياطين ، ثم إن ما في هذه البلاد من الرفه واللهو والجمال ، يستلب من الفاتح كل صفات الرجولة والحمية ، ويفقده صفات البداوة ، حتى يعود أضعف من ذات خمار ، ونحن العرب ، خلقت أخلاقنا من صخور الصحراء ، فلا نعيش إلا فى الصحراء ، فإذا خرجنا منها فسدنا ، كما يفسد السمك إذا خرج من الماء ... أمامك تاريخ العرب كله ، فاقرأه ، ثم انظر إلى ما هو أمامك

من أمر ملوك الأندلس ، وتأمل لماذا قدمنا اليوم إلى هنا .

— أنت رجل عميق الغور ، ولكنى أخشى أن تكون مخطئاً . . . أتظن أن فاتحا عظيما يعزف عن هذا الملك العظيم ، وهو فى قبضة يده ، لهذه الأوهام والأباطيل ؟ !

— ليست أوهاماً ، وليست أباطيل ، وإنما هى الحق . . . خير لنا أن نقيم بصحرائنا أقوياء أشداء ، من أن ننغمس فى مدنية كاذبة قصيرة الأمد ، تقضى على كل ما فينا من شجاعة ونخوة .

— أتفضل خبز الشعير على الفطائر المغموسة فى الزبد والعسل ؟ !

— أفضله على الفطائر المسمومة .

وهنا صاح الجند : أمير المسلمين ينزل إلى الشاطئ .

وأقبل ابن تاشفين تحيط به الجنود : وهو رجل فى الثمانين من عمره ، رَبْعَة ، أُمَيَل إلى القصر ، نحيف الجسم ، أسمر اللون فى وجهه عينان كعينى النسر ، وله لحية خفيفة جللها الشيب .

نزل ابن تاشفين إلى الشاطئ فصلى بجميع جيشه ، ثم أقبل عليه الرشيد بن المعتمد نائباً عن أبيه ، فقبل يده ، ورحب

بمقدمه ، وقدم له من الهدايا وصنوف المئونة ما يليق بكرم ابن عباد ، وفرح أهل الجزيرة الخضراء واستبشروا بقدومه ، ورفعوا الرايات ، وقدموا للجند من الطعام والتحف ما يستطيعون .

وبعد أيام قدم المعتمد إلى الجزيرة الخضراء فى ثُلَّة من عسكره ، فلما قابل ابن تاشفين تعانقا عناق الحبيب للحبيب ، وامتزجت دموع السرور منهما بدموع الحب والإشفاق .

وفى هذه الأثناء كانت جيوش ملوك الطوائف تفد على إشبيلية براياتها وقوادها كأنها الأمواج تلتقى على شاطئ المحيط .

ثم تحركت جيوش ابن تاشفين إلى إشبيلية ، وأقامت بها قليلا . ووصل خبر قدوم جيش ابن تاشفين إلى الفونسو وهو بطليطلة فنادى بالحشد العظيم ، وجمع جموعا كثيفة العدد من الجلالقة والفرنجة ، وعزم على أن يقودها بنفسه .

ولما نظر فرأى جيوشه تسد الأفق ، التفت إلى أكبر قوّاده الكونت الڤيرفانز ، وتسميه العرب « البرهانس » وقال : بهؤلاء أقاتل الجن والإنس وملائكة السماء .

وفى صباح يوم ، هبّ الفونسو من نومه قلقاً ، لأنه رأى رؤيا عجيبة لم يستطع لها تأويلا ، فجمع قساوسة النصارى وأحبار اليهود

وقال : رأيت فيما يرى النائم : أنى أركب فيلا — والفيل ليس فى بلادنا ، ولم يخطر ببالى ذكر له قبل نومى — وأن أمامى رجلا يدق طبلا . فتحيروا فى تعبير هذه الرؤيا ، وقالوا : رأيت خيراً أيها الملك ، إن هذه الرؤيا دليل النصر . ولكن الفونسو لم يثق بهم ، وهز رأسه قلِقاً مضطربا . وتسرب أحد اليهود حتى أتى مسجد طليطلة ، فقابل الشيخ أبا عبد الله المغامى وقص عليه الرؤيا ، ونسبها لنفسه ، فقال له الشيخ : كذبت ، ما هذه الرؤيا لك ، ولن أعبُرها إلا إذا صدقتنى .

فقال : إنها رؤيا الأذفونش . فقال الشيخ : الآن صدقت ، فلن يرى هذه الرؤيا غيره . . . اذهب بى إليه .

فذهبا إلى الفونسو ، فقال له الشيخ :

أيها الأذفونش ، إن هذه الرؤيا تدل على بلاء عظيم ، ومصيبة فادحة تقع عليك وعلى عسكرك . وتفسير الفيل من قوله تعالى : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم فى تضليل » ، وتفسير الطبل من قوله تعالى : « فإذا نقر فى الناقور فذلك يومئذ يوم عسير ، على الكافرين غير يسير »

فهاج غضب الفونسو وقال : والله لئن ظهر كذبك يا شيخ

لأقطعنّ جسمك لكلاب الصيد . فابتسم المغامى وقال : وإن صدقت فلن تنالنى يدك ! ثم تحركت جيوش الفونسو ، وتحركت جيوش ابن تاشفين حتى وصلت إلى مكان بالقرب من بطليوس يعرف بالزلاقة ، وأقام بعسكره بعيداً عن عسكر ابن عباد . وهنا أرسل ابن تاشفين — على عادة الغزاة — كتاباً إلى الفونسو يدعوه فيه إلى إحدى سبل ثلاث : الإسلام، أو الجزية ، أو القتال . فسخر الفونسو من الكتاب وبعث يقول لابن تاشفين : إن اليوم يوم الخميس ، وغداً الجمعة وهو عيد المسلمين ، وبعده السبت وهو عيد اليهود ، ثم الأحد وهو عيد النصارى ، وأرى أن نلتقى يوم الاثنين .

فقال المعتمد : إنها دسيسة من الطاغية ، وأرسل عيونه إلى معسكر الفونسو ، فرأوا إسراعا فى الاستعداد والأهبة ، وسمعوا همس الأسبان بأن الهجوم سيتجه أولا إلى جيش ابن عباد

وفى هذه الليلة ، قام الوعاظ فى الفريقين من المسلمين والقساوسة ، يعظون الجنود ويحثونهم على الجهاد والصبر ، والاستماتة فى نصرة الحق . وكان ابن عبّاد يمر بين جيوشه ويقول :

لا بد من فرج قريب يأتيك بالعجب العجيب

غزو عليك مبارك سيعود بالفتح القريب
لا بد من يوم يكو ن له أخاً يومُ القليب

وفى صبيحة الجمعة ، العاشر من رجب سنة إحدى وثمانين وأربعمائة ، لم يشعر جيش ابن عباد إلاّ وجموع الفونسو المائجة تُطبق عليه ، فجالد المسلمون وصبروا عند الصدمة الأولى ، ولكن قوة الأسبانيين وكثرة عددهم ، كانت فوق طاقة الأندلسيين ، ففر كثير من جند ابن عباد ، ولكنه كان يقدم إقدام المستبسل المستميت ، حتى لقد جرح صدره ويداه ، وشدخ رأسه ، وعقر تحته ثلاثة أفراس وهو لا يفتأ كارًّا واثباً حتى انكشف بعض أصحابه وفيهم ابنه عبد الله . ثم تحركت فيه عاطفة الأبوة فى هذا المأزق الذى يخب الموت فيه ويضع ، فذكر ابنا له صغيرا ، تركه عليلا بإشبيلية ، وكان به مغرما ، فقال :

أبا هاشم هشمتنى الشفار
فلله صبرى لذاك الأوارِ
ذكرت شُخيصك تحت العجاج
فلم يثننى ذكره للفرار

وبينما كان ابن عباد يقاتل جيوش الأسبان ، أرسل ابن تاشفين

جنودا إلى معسكر الفونسو ، وأمرهم بإحراق كل ما فيـــه من مثونة وعُدة ، فملأ لهيبه الجو .

ثم جاءت اللحظة الأخيرة التى وصل فيها ابن عباد إلى اليأس وكاد يلقى السلاح مستسلما ، ولـكنه ما كاد يهم بإغماد سيفه ، حتى رأى جيوش داود بن عائشة أحد قواد ابن تاشفين مقبلة عليه ، فعاد إليه الأمل ، وانضم ببقية من معه إليها .

وأقبل ابن تاشفين بخيله ورجله ، وعاد الفارّون حينما لمعت لهم بوارق الانتصـار وصدق المسلمون الحملة ، فشتّتوا جيوش الأسبان .

وانكشف الفونسو ، ووثب عليه غلام بربرى يدعى بلاطس ، بخنجر ، فضرب به فقدّ درعه وأصاب فخذه ، ففر بنحو خمسمائة من رجاله إلى تل بعيد عن المعركة ، بعد أن فنى جيشه ، وقتلت أبطاله ، ثم رحل إلى طليطلة يجر ذيول الخذلان .

وسجد ابن عباد لله شكرا ، وأرسل لابنه الرشيد بأنباء النصر على جناح طائر : وحزّ المنتصرون رءوس القتلى وعملوا من رءوسهم مآذن ينادون من فوقها للصلاة ، وقضوا الوقت فى تهليل وتكبير .

ورأى ابن تاشفين جراح ابن عباد فاشتد أسفه ، فقال المعتمد :

وقالوا : كفّه جُرحت . فقلنا :
أعادِيَةٌ تسيل بها الجراحُ ؟!
وما أثر الجراحة ما رأيتم
فتوهنَها المناصل والرماح
ولكن فاض سيل البأس منها
ففيها من مجاريه انسياح

أمّا الفونسو : فأمضّه الحزن ، وعضّه عار الهزيمة ، فلم يمكث بعد الموقعة أياما حتى مات .

ضيافة

عفّ ابن تاشفين هو وجيشه عن اقتسام الغنائم ، وفاء بعهده للمعتمد ، وظهوراً بأنه إنما حارب للجهاد والمثوبة ، وأنه لا يريد عَرَض الحياة الدنيا . ثم دعاه المعتمد إلى الضيافة بإشبيلية ، فقبل الدعوة ، ورحلا وأعلام النصر تخفق فوق رأسيهما ، وكلما مرّا ببلد أو مدينة ، هُرع إليهما الناس يحيّون فيهما البطولة ، والعزيمة الصادقة ، والصبر عند البأس ؛ حتى إذا بلغا إشبيلية

أقبل عليهما المهنئون والشعراء وكان ابن وهبون قد أعدّ للموقف قصيدة طويلة ، فلما همّ بإلقائها سمع قارئاً فى صدر المجلس يقرأ : « إلاّ تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين ، إذ هما فى الغار، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا » ، فلما سمع الآية قال : بُعداً لى ولشعرى ! والله ما أبقت لى هذه الآية شيئاً .

نزل ابن تاشفين فى ضيافة المعتمد ، فرأى من البذخ والترف والنعيم ، ومن عظمة القصور وكثرة الحشم والجوارى ، وجمال الفُرُش والأثاث، والإسراف فى الإنفاق — ما أذهله وذهب بلبّه .

ثم نظر حول القصر ، فرأى نهراً عظيما تتكسر أمواجه كأنها قطع البلوّر ، والسفن مقبلة فيه مدبرة ، تلعب الرياح بشُرُعها البيض كأنها الحمائم تحوم على مشرع ، ورأى إلى ناحية الغرب شرف إشبيلية وقد كثرت فيه الضياع ، وحجبت الكروم وأشجار التين والزيتون عن أرضه الشمس .

وكان سير بن أبى بكر بجانبه ، فالتفت إليه وقال :

— ياسير ، أترى ما نحن فيه من النعيم ؟ !.... إن هذه البلاد قطعة من الفردوس ، وهذا القصر الذى نحن فيه أحد قصور الجنة. ياسير. . . إن هذه الأموال التى تبعثر بجنون على هذه القصور ،

وفى هذا الترف الذى تجاوز الحدّ ، لابدّ أن تكون مأخوذة من الرعية قسراً واغتصاباً

— إن ابن‌عباد يا مولاى لا يهتم إلا بنفسه وإشباع شهواته.

— أتحبه رعيته يا ابن أبى بكر ؟ ؟

— إن الرعية تبغضه ، وتودّ لو تستريح من حكمه ، وهاهى ذى الفرصة سانحة يا مولاى ، فمرنى أنقضّ بجيشى على هذا الخليع ، فلن يأخذ منّى ثلّ عرشه المتداعى ساعة من نهار .

— ليس الآن يا ابن أبى بكر . . . إن ملوك الأندلس لا يزالون أقوياء بعد هذه النّصرة ، وبعد أن استراحوا من الأذفونش . والأمور مرهونة بأوقاتها .

— إننى قابلت بالأمس ابن أدهم ، قاضى الجماعة بقرطبة ، وأبا القاسم الهوزنىّ وهما صديقان وفيّان لمولاى أمير المسلمين ، فأخذا يحثانى على الوثوب على ابن عبّاد ، واستئصال ملكه .

— نعم إنهما صديقان ، ولكنّ الوقت لم يحن بعد ، فاترك ذلك لى يا ابن أبى بكر .

ثم غلبه النوم ، فتركه سَيْرٌ يغطُّ غطيطاً .

وكان المعتمد فى هذه اللحظة فى قصره ، بين وزرائه وقواده ،

والسرور يملأ جوانب نفسـه ، وليس له حديث إلاّ الفتح والنصر ، وما أفاء الله على المسلمين من غنائم . وبينما هو فى الحديث إذ استأذن عليه شيخ مجهول الاسم ، رث الهيئة . فلما مثل بين يديه قال : أصلحك الله أيها الملك . . . إن من واجب شكر النعمة لله ، إسداء النصح لك : لقد وقع فى أذنى من بعض أصحاب ضيفك ابن تاشفين ، خبر يدل على أنهم يرون أنفسهم ويرون مَلكهم أحق بهذا الملك منك ، وقد بدا لى رأى ، فإن آثرت الإصغاء إليه قلته . فقال المعتمد : قله ولا تخف ، فقال الشيخ :

إن هذا الملك الذى أطلعته على سر دولتك ، طمّاح مستأثر ، وقد حطم ملوك زناتة ببر العدوة واغتصب ملكهم ، وهو فاعل بك مافعل بهم ، بعد ما رأى من عظم الأندلس وخصبها ، وبعد أن فتك بجيوش الأذفونش ، فأعدمك بإضعافه أقوى ناصر لك عليه ، فاتخذ الحزم فيما هو ممكن اليوم .

— وما الذى هو ممكن اليوم ؟؟

— أن تجمع أمرك على القبض على ابن تاشفين واعتقاله ، ثم تصارحه بأنك لا تطلقه حتى يأمر كل من بالجزيرة من عسكره

أن يرجع من حيث جاء . ثم تتعاهد مع ملوك الجزيرة على حراسة هذا البحر ، والقضاء على كل سفينة له تجرى فيه ، ثم تأخذ منه رهائن عزيزة على نفسه ، وتستحلفه بأغلظ الأيمان ألا يضمر عَوْدًا إلى هذه الجزيرة . . . حينئذ تنظر فى ملكك بعين اليقظة والحزم ، ويعظم قدرك وتهابك الملوك . فأطرق المعتمد طويلاً وقد استحسن رأى الرجل ، وراق فى نفسه ، وحينئذ أسرع الموزنىّ وقال : يا شيخ ، ما كان المعتمد على الله — وهو الكريم العنصر ، والملك الذى اجتمعت فيه كل مكارم العرب ممّن يغدر بضيفه . فقال الشيخ : الغدر أن تغتصب حقاً ليس لك ، لا أن تدفع عن نفسك ضراً وضيماً .

فقال الموزنىّ : ضيم مع وفاء ، خير من حزم مع جفاء .

ووافق المعتمد على هذه الحكمة الغريبة ، التى تأنق الموزنىّ فى سجعها ، فخرج الموزنىّ وهو يقول :

إحدى لياليك فهيسى هيسى

لا تنعمَى الليلة بالتعريس !

أفـــــول

رحل ابن تاشفين إلى مراكش وترك بالأندلس جنوده وقوّاده ، وعاد المعتمد إلى ما كان فيه من اللّهو والعبث ، وقضى أكثر من سنتين فى بلهنية عيش وانغماس فى النعيم .

وعادت أرماندا إلى ما كان لها من الحظوة ، وعادت الرميكية إلى بذخها وإسرافها . وتمدّد ذات صباح على كرسيّه فى حديقة قصره ، وجاريته لونا (قمر) تحجب عنه الشمس ، وهو يقرأ فى شعر ابن أبى ربيعة ، والمغنية تنشده من شعره :

قامت لتحجب قرص الشمس قامتُها
عن ناظرى — حُجِبت عن ناظر الغِيَرِ —
علماً لعمرك منها أنها قمـــــر
هل تحجب الشمسَ إلاّ غرّةُ القمرِ ؟ !

ودخل الموزنىُّ ، فملأ الجوّ أنساً بحسن حديثه ، والأميرَ غروراً بأساليب ملقه وكثرة إطرائه ، وقلبه فى أثناء ذلك يتحرّق سخطاً على المعتمد ، ويتلهب شوقاً إلى زوال دولته .

ثم رأى عنقوداً يتدلّى من كرم ، فذهب لقطفه ، فلحقت به

أرماندا لأخذه ، متكلفة شدّة الرغبة فى اختطافه منه ، فهمس فى أذنها : ما هذا يا أرماندا ؟ ماذا فعلت بابن عباد ؟ فقالت : تركته كما تراه فى حُلم دائم من النعيم والنسيان ، لا يستطيع أن يدفع عدواً ، أو يصطنع صديقاً . فقال الهوزنىّ : كيف فعلت هذا ؟ قالت : لا أدرى غير أنهم يقولون فى قشتالة : إن المرأة شرك الشيطان .

وعندئذ دخل على المعتمد أخوه ذخر الدولة ، وهو مكفهر الوجه متشائم ، فقال :

— يا مولاى . إنى رأيت فى منامى بالأمس : كأن رجلاً صعِد فوق منبر قرطبة ، واستقبل الناس ، وأخذ ينشدهم :

ربّ ركب قد أناخوا عيسهم
في ذرا مجدِهم حين بَسَقْ
سكت الدهر زماناً عنهمُ
ثم أبكاهم دماً حين نطقْ

فصاح الهوزنىّ مقهقهاً : أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين .

ثم استأذن وانصرف ، فلقى في الطريق سير بن أبى بكر ، فقال

به إلى ناحية ، وأخذ يلحّ عليه ، ويحثّه على الوثوب على المعتمد ، ويذلل له كل صعب ، ويسدّ عليه كل باب . فقال له سير : وماذا أصنع وأمير المسلمين ينصح بالانتظار ؟

— اكتب إليه ما أمليه عليك .

— اكتب أنت ، فما أنا بكاتب .

فكتب الهوزنيّ كتاباً عن لسانه لابن تاشفين ، يشكو منه من ملوك الأندلس جميعاً ويقول : إنهم منصرفون إلى لذّاتهم ، وقد تركوه يقاسي الشدائد هو وجنده من غير أن يمدّوه بمال أو رجال ، وإنه يخشى أن ينقلب هؤلاء الملوك عليهم بالاستعانة بالأسبان . بعث سيرٌ الرسالة إلى ابن تاشفين ، فأمره ابن تاشفين أن يحارب ملوك الاندلس واحداً واحداً ، وأن يجعل آخر غزوه لابن عبّاد .

فأسرع ابن أبي بكر إلى إنفاذ أمر سيّده ، واستولى على ولايات ملوك الطوائف . ثم حاصر إشبيلية ووصل خبر حصارها إلى المعتمد وهو بين جواريه وندمائه فذعر من بالقصر ، وولول النساء والجواري ، وخرج المعتمد وعليه غِلالة شفّافة ، فامتطى

صهوة جواده ، واستلّ سيفه فى يده ، وصاح فى حرس قصره : اقتلوا البربر الغادرين .

وكان البربر قد دخلوا المدينة من باب الفرج ، فصال فيهم بسيفه فتقهقروا ، حتى إذا ذهبوا بعيداً عاد المعتمد ، فرأى ابنه مالكاً مقتولاً عند باب الصبّاغين ، فحمله بعض الحرس وهو ينتحب خلفه.

وكان الناس قد شملهم الذعر وخامرهم الجزع ، فكانوا يثبون فى النهر ، ويقذفون بأنفسهم من شرفات الأسوار .

فلمّا كان العشرون من رجب ، سنة أربع وثمانين وأربعمائة ، اقتحم جند سَيْرِ القصر ، وقبضوا بالأيدى على المعتمد ، فطلب الأمان لنفسه وأهله فأمّن ، وكان يبكى وينشد :

إن يسلب القوم العدا ملكى وتُسلمنى الجموعُ
فالقلب بين ضلوعه لم تُسلم القلبَ الضلوعُ
لم أُستلب شرف الطبا ع . أيُسلب الشرف الرفيع ؟
شيم الألى أنا منهمُ والأصل تتبعه الفروع

ثم قيده أعداؤه بالأغلال ، وأعدوا له ولأولاده وأهله السفن للرحيل إلى طنجة .

فاجتازت السفن شاطىء إشبيلية ، والجموع المتراكمة عليه من

الرجال والنساء والأطفال ، تبكى وتنوح .

وكان فى مكان بعيد من الشاطىء رجلان ، ينظران إلى السفن فى شماتة وجذل ، هما : عبد الله بن أدهم ، وأبو القاسم الهوزنى .

وكان أبو القاسم يردد :

أين ابن معن وعبّاد ومعتصمٌ
وأين باديس ، بل أين ابن ذى النون ؟!
كانت لهم فى هضاب العز أبنية
فأصبحوا بين مقبور ومسجون ! !

أســـر

سارت السفن بابن عباد وأسرته وهم فى غم ونُواح : مُلك زال كأنه ضحوة من نهار ، وعز طار كأنه حُلم نائم ، وسطوة وسلطان حل مكانهما الذل والإسار ، فكان المعتمد دائماً مطرقاً مفكراً ، وكان ينظر إلى قيده ويقول :

قيدى ، أما تعلمنى مسلماً ؟
أَبَيْتَ أن تشفق أو ترحما !

يبصرنى فيك أبو هاشم
فينثنى القلب وقد هُشّما

ولما بلغت السفن طنجة، رأى المعتمد جماعة بالبادية يستسقون لقلة المطر، وشدة الجفاف، فقال:

خرجوا ليستسقوا فقلت لهم: خذوا
دمعى ينوب لكم عن الأنواء
قالوا: حقيق فى دموعك مقنع
لكنها ممزوجة بدماء!

ثم نقل إلى أغمات، وأودع السجن فقال:

غريب بأرض المغربين أسير
سيبكى عليه منبر وسرير
وتندبه البيض الصوارم والقنا
وينهلّ دمع بينهن غزير

وكانت بناته يعشْنَ فى السجن من غزل أيديهنّ فى فقر وكفاف عيش، فحلّ أول عيد له بالأسر، فدخلن عليه فى أطمار بالية، وقد غيّرهنّ البؤس، وأنحلهنّ السّغب، فلما رآهنّ قال:

فيما مضى كنتَ بالأعياد مسروراً
فساءك العيد فى « أغمات » مأسوراً
ترى بناتِك فى الأطمار جائعة
يغزلن للناس ، لا يملكن قطميرا
يطأن فى الطين والأقدام حافية
كأنها لم تطأ مسكا وكافورا !

ورأى من نافذة السجن ، سرباً من القطا ، يطير حرّا طليقا ، فهاج وجده وأنشد :

بكيت إلى سرب القطا أن مررن بى
سوارحَ لا سجنٌ يعوق ولا كَبل
هنيئاً لها أن لم يُفرّق جميعُها
ولا ذاق منها البعدَ عن أهلها أهل
ألا عصم الله القطا فى فراخها
فإن فراخى خانها الماء والظل

وقتل المرابطون ابنه المأمون بقرطبة ، وابنه الراضى برندة ، فزاد جزعه واشتدّ حزنه ، فقال :

يا غيمُ عينيَ أقوى منك تهتانا
أبكى لحزن وما حُمّلتَ أحزانا
بكيتُ « فتحا » فإن ناديت سلوته
بدا « يزيدُ » فزاد القلب نيرانا
يا فِلذتيْ كبدٍ يأبى تقطعها
عن وجدها بكما ما عشت سُلوانا

ولم يزل فى أنين وحنين ، يرسل الزفرات ويطوى صدره على اليأس ، حتى أدركته منيّته سنة ثمان وثمانين وأربعمائة .

ومن العجب أن هذا الملك الذى سار فى الخافقين ذكره ، وهزّ أعطاف الزمان شعره ، وكان اسمه على كل لسان ، والثناء عليه يجلجل فى كل مكان — ينادَى للصلاة عليه بعد موته فيقال : الصلاة على الغريب ! !

إن من الغريب أن يكون ابن عباد غريباً ! !

وبعد أيام من موته ، قدم إلى « أغمات » شاعره أبو بكر ابن عبد الصمد ، وكان اليوم يوم عيد ، فوقف على قبره خاشعاً باكياً .

وجلس الناس حول القبر يبكون و ينتحبون ، ثم سكت الجمع ، وأخذ ابن عبد الصمد ينشد :

ملكَ الملوكِ أسامعٌ فأنادى
أم قَدْ عدتك عن السّماع عوادى ؟!

وَقَرَأَ قارِئٌ بِصَوْتٍ نَدِيٍّ ، شَجِيِّ النَّبَرَاتِ :

« قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ ، تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاء ، وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاء ، وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاء ، وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاء ، بِيَدِكَ الْخَيْرُ ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

اقرأ

سلسلة كتب شهرية للجيب يشترك فى تأليفها
أشهر الكتاب فى مصر وسائر البلاد العربية
تصدرها مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

١	أحلام شهرزاد	للدكتور طه حسين بك
٢	شاعر الغزل	للأستاذ عباس محمود العقاد
٣	مذبح المريخ	للأستاذ فؤاد صروف
٤	عود على بدء	للأستاذ ابرهيم عبدالقادر المازنى
٥	دستويفسكى	للأستاذ حسن محمود
٦	شاعر ملك	للأستاذ على الجارم بك

الثمن بالنسخة

مصر ٥٠ مليما سوريا ولبنان
السودان ٥٥ مليما العراق
فلسطين وشرق الأردن ٦٠ ملا

الكتاب التالى للاستاذ عبدالرحمن صدقى يظهر فى يو